الميلودي شغموم

بقايا من تين الجبل

رواية



دار الحوار

● بقايا من تين الجبل

● الميلودي شغموم

● الطبعة الأولى 2009

● الناشـر: دار الحـوار للنشـر والتـوزيـع

سورية - اللاذقيـة - ص. ب: 1018

هاتـف وفاكـس: 422339 41 963

البريد الإلكتروني: Soleman@scs-net.org

daralhiwar@gmail.com

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئـي في القسـم الفنـي بـدار الحوار

تصميـم الغـلاف: ناظـم حمـدان

الميلودي شغموم

بقايا من تين الجبل

رواية

استهلال

الحمد لله على المرض، والحمد لله على كل العوامل التي أدت إلى المرض، ماذا كان سيكون مصيري لو لم أمرض؟

الكُوطة الصغير

أفطر. المحمدية. دار قرب الميناء. بهو الدار حيث تجري الحياة الجماعية لعائلة الشيظمي باستمرار على إيقاع محمد عبد الوهاب وبوشعيب البيضاوي. أنا جالس أفطر، تستيقظ "الكُوطة" وتطل علي، من باب البيت، وأنا لا أزال في البهو، قائلة تسبقها ابتسامة ماكرة:

ـ صباح الزين اللي يزيد فالعمر، ألعمر!

أرد في أدب، وجد غير مصطنع:

ـ صباح الخير، الكُوطة!

تتفحصني بنفس الابتسامة، وتقول، قبل أن تختفي في المرحاض الذي هو كذلك حمام:

ـ اللي حلم وما تذكر يصبح الصباح يشوف، ويتفكر...وقل خير وسلام!

ـ خير و دوام!

أحبت دائما أن نناديها بـ "الكُوطة" لأنها، تقول، تذكرها بجدتها "الكُوطة الكبيرة"، الشهيرة بغراماتها الكثيرة، والتي توفيت، في حوالي التسعين من عمرها، وهي تتبع أحد المغنين الشعبيين المتجولين. كان يصغرها بخمسين سنة!

تصغرني الكُوطة بستة أشهر فقط. إلا أنها لا تثير اهتمامي:

ـ تبدو لي ميتة، منذ الصغر، جافة، قلت مرة لعزيز!

وتتعمد أن تخفي مفاتنها، على عكس أمها زيزة، في ملابس فضفاضة، مفروكة:

ـ كأنها مومياء نسيت، قرونا عديدة، في عراء الصحراء، أضفت لعزيز!

وشعرها، الملفوف كاملا، و باستمرار، في فولار ضخم، أبيض، مدعوك، باهت مشدود إلى الأمام، تشم منه بقوة رائحة الزيت البلدية والعرق، فتبدو أكبر سنا وأقل جاذبية من زيزة:

ـ مع أنها، تابعت مع عزيز لأرفع عنها تهمة القذارة، تستحم كل يوم!

هذه بنت زيزة. غير أن زيزة تصر على حبسها في البيت وفي تلك الملابس الباهتة، المدعوكة، الواسعة، كأنها لا تريدها أن تظهر كامرأة، أو لتبقى زيزة المرأة الوحيدة في البيت، وقد لا تريدها أن تتزوج لتظل مثل الخادمة. الجميع يعرف ذلك وقد يهمس به أو يجهر، خاصة الخالة حليمة. والكُوطة مستسلمة لهذه اللعبة مع زيزة: الصغيرة تمثل دور الكبيرة والكبيرة تلعب لعبة الشابة!

والكُوطة، في بداية الأمر، لم ترفع بصرها قط نحوي. ربما تحلم أحلاماً تقليدية، أو عائلية، بشأني. وأنا محترس. وكم رددت الخالة حليمة في همس مجهر، لعلي أسمع:

- الكُوطة للمفتش لو يرى، أيها الراقدون تحت التراب!

فترد عليها زيزة في خبث مفضوح:

- يطير الطاير و يعلي والرامي يجيب عمرو!

وما "رأيت" ولا "سمعت" ولا "طرت" طوال ما يقرب من السنة، كل تلك المدة التي قضيتها في ذلك البيت:

- نماذج أخرى للنساء في رأسي، غير هذه، أبرر لعزيز الذي يحضني على نفس الأمر، على أن " أرى"!

تدمن زيزة على مواسم الأولياء وتمكث، عادة، في الموسم الواحد من أوله إلى آخره، لكن مواسمها المفضلة أربعة فقط:

الهادي بنعيسى، ومولاي ابراهيم، ومولاي بوعزى، ومولاي بو شعيب الرداد. هذه المواسم الأربعة يستحيل أن تتخلى عن أحدها مهما كان الأمر!

لا أريد أن أذكر كل ما يتردد من كلام فاحش حول أسبابها السرية للمشاركة في هذه المواسم. لكني لم أفهم هذه المرة لماذا ذهبت إلى ضريح بويا عمر الذي لا يذكر إلا و معه الجنون!

المهم أنها ذهبت إلى هناك لتمكث أسبوعاً أو أكثر، حسب قولها، أي حوالي نصف شهر فافتقدت جسدها، خلال الليالي الأربع الأولى من غيابها، إلى درجة أنني فقدت معه القدرة على النوم:

ـ يظهر أني تعودت على أن يرخيني جسدها المكتنز، الناعم، الحار، السخي، قبل النوم، أقول لعزيز، وعلى كلامها الذي تبدأ به عصر جسدي:

ـ ياك بوك، يحسب لك أنا أمك بالصح، مص الحليب...وها لعسل...ها الشراب، ارضع...مص، بوك، كل زيزة!

ـ التعود على المحرم، يشرح عزيز، أو يبرر، يقتل النفس!

في الليلة الخامسة، من غياب زيزة، سبقتنا الكُوطة إلى النوم ثم تبعها الشيظمي، زوج زيزة، بعد نصف ساعة. رمى بالكتاب،

"الرحمة في الطب والحكمة"، من يديه فوق المائدة الخفيضة وقال لي:

- أتركك مع حساباتك، أنت تجمع وهم يسرقون، ترفق بنفسك، غداً الأحد، تصبح على حساب!

ابتسمت له بصعوبة لكنه كان قد استدار جهة باب غرفة نومه:

- أشك في أنه لا يعرف، الأمر الذي يعذبني أكثر!

إذا كان يجهل ما يجري على سريري وهو نائم فإن أمري، إذا ظهر ذات يوم، لن يتعدى الفضيحة، لكنه إذا كان يعرف، ويتظاهر بالنوم، أو ينام نوماً هادئاً مع ذلك، فإني لن أفلت من العار، من فيض هذا الشعور بالخزي الذي أصبح يلبسني بمجرد ما تغادر زيزة فراشي. لماذا قبلت هذا الوضع المذل في كل الأحوال؟ أسأل زيزة:

- هل يعرف؟

فتضحك من عينيها:

- شغلك، بوك؟ خذ زيزة، واسكت!

ثم تضمني بعنف لا يتصور:

- وليدي خايف... مسكين... بوسني، بوسني في البزولة، راس البزولة، أوليدي، بوس يلعن بوك، أ...الجن!

بعد أقل من ساعة جمعت وثائقي في حقيبتي و تسللت إلى فراشي، ثم أحسست بزيزة فوقي وأنا أعرف أنها في بويا عمر. انتابتني موجة حادة من الغضب والإحساس بالذل فقفزت من الفراش وأنا أردد:

- كفاك خزياً، ضع حداً لهذا الشطط، أيها المهبول!

لكن الجسد الذي رميت من فوقي كان حقيقياً:

- الكُوطة!

وصرخت:

- ماذا تفعلين هنا؟

كانت تبكي:

- لا تصرخ هكذا، إنك ترعبني، رجاء لا تصرخ!

وصدقتها فكففت عن الصراخ، وربما أكون فعلت ذلك فقط خوفاً من أن يستيقظ الشيظمي وتكتمل المهزلة:

- إذن اخرجي!

وخرجت تبكي.

- هذه مؤامرة، قلت في سري. تغتصبني الأم ثم تتركني للبنت، ماذا أستطيع أن أقول للقاضي إذا ذهبت البنت تشتكيني بتهمة الاغتصاب، أو فض البكارة، وجاءت الأم تشهد ضدي:

- سيدي القاضي، فعلها معي قبل أن يفعلها ببنتي؟

بمن سيزوجني القاضي في هذه الحالة، بالأم أم بالبنت؟

ـ الشنق، أو الرجم، مصيري!

وتذكرت كل الحكايات التي لا تصدق، بهذا الصدد، والتي راح ضحيتها العديد، من شباب ذلك الوقت، والحروب العائلية، أو القبلية، التي كانت تنشب حول هذا الأمر: مسح " شرف" بنت في شاب برئ يقتل فيه الشرف!

ـ لم أكن بعد قد سقطت في هذا الفخ، صححت لعزيز!

أمسكت برأسي بين يدي وأخذت أبكي، ندبت حظي، وشتمت سذاجة، أو تواطؤ، أمي:

ـ كان من الممكن أن أسكن وحدي، أستدين في انتظار تصفية الوضعية المالية، وأسكن في أية خربة، ولماذا لم أسكن مع زملائي، أولئك الذين نجحوا معي في نفس مباراة توظيف مفتشين مساعدين في المالية؟

منذ شاهدت زيزة تدخل إلى بيتنا لأول مرة أدركت أنها من أولئك اللائي حوّلهن والدي إلى قصيدة ليهرب منهن، ليحرر نفسه من العذاب، أي عذاب تسببه امرأة للورع أو الطهارة أو الغفلة أو المثالية:

ـ ليتني أستطيع أن أكتب قصيدة واحدة مثلك، يا والدي، تحوّل زيزة، أو أية امرأة أخرى، إلى وحش أليف!

وكنت جالساً جنب أمي أساعدها على عزل الصوف حين دخلت فجأة وأخذت تنظر إلي طويلاً قبل أن تسلم على أمي وتقول:

ـ زين، ولد محسون، عوضك الله على لبنات ولولاد، و شبه بوه، سبحان الناطق الخلاق!

وجلست القرفصاء أمامي وهي تخرج ثديها السمين:

ـ أنت من الآن ولدي، كما أنت ولد أمك، ارضع حليبي، باسم الله عليك!

تقززت لكن أمي أمرتني صارمة:

ـ قل باسم الله على ما قسم الله، وارضع، الواحد مزيان تكون له أكثر من أم في هذا الوقت، أمك زيزة سخية، وحنينة، ومن دمنا، بنت الناس، ارضع، أوليدي، واشكر الله، ارضع!

لم أجد أثراً للحليب في حلمة زيزة:

ـ ولا نقطة واحدة، أخويا عزيز، قسماً بالله العظيم!

وثديها كان صلباً ويابساً:

ـ مثل رأس الصخرة، والله، أخويا عزيز!

وأردت أن أقول ذلك لأمي لكن زيزة اختطفتني من مجلسي وضمتني ضماً خانقاً وهي تردد:

ـ كل شي بالنية، انوي الخير توجد الخير، توجد لعسل في حليب أمك الثانية، وتشوف اللي ما يشوفو عفريت و لا جن اكحل، الخير والبركة!

ـ قالت لي أمي، أخويا عزيز، بكل بساطة: بلت في سروالك، ألخواف!

وتخلصت منها بصعوبة لأهرب إلى الخارج حيث بكيت حتى جف دمعي:

ـ ظلت الحلمة اليابسة مغروزة في حلقي، لا أستطيع لا ابتلاعها ولا لفظها، مدة طويلة!

إلا أن أمي زيزة غمرتني بالهدايا والعطايا، وكانت تأتي ثلاث مرات في السنة لكي تأخذني معها من أجل قضاء العطل المدرسية صحبتها، وبعثت بي إلى المخيمات الصيفية، وكانت سترسلني إلى فرنسا للدراسة الجامعية لولا الاختفاء المفاجئ لأخت كانت لها هناك، ولولا إصرار أمي، تحت تأثير نصائح الشيظمي، على أن أصبح مفتشاً مساعداً في المالية حيث ينتظرني مستقبل كبير، يزعم الشيظمي دائماً، و قد أتمكن من اللعب بالملايير، إذا أحببت اللعب:

ـ اسمع نقول لك، آه، عندك تمشي تعمل كيف بوك، تعاشر لعزارى ويضحكوا عليك النسا وينهبوك، تجلس مع أمك زيزة،

واكل، شارب، مصبن، ومحظي حتى للنهار فاش يجيك الرابيل، إن شاء الله بحوله وقوته، ذيك الساعة يكون لي معاك كلام آخر، إوى كون راجل واحزم راسك الله يرضي عليك ويحفظك، وراه كيف أنا كيف أمك زيزة، تاهي أمك ومرضعاك، طيعها واسمع لها كيف طايعني وسامعني الله يحفظك من بنات لحرام واصحاب الوقت!

ليتها تعلم بحالي الآن:

ـ حتى في الفراش أقول لزيزة: أمي زيزة!

ـ مرضي الوالدين، يسخر منير!

انتبهت فجأة إلى أن الكُوطة تسد الباب بجسدها الملفوف في قميص نوم زيزة، نفس القميص الذي جاءت به زيزة إلى فراشي أول مرة:

ـ امرأة أخرى، حية وجذابة، تمثال بديع!

كانت تبتسم وعيناها غارقتان في الدمع ثم قالت:

ـ لماذا أنت خائف مني بهذا الشكل؟ هل أنا مرعبة وقبيحة إلى هذا الحد؟

ـ خائف منك؟

أضافت وقد غطى ابتسامتها الخبث:

ـ أنا لا أريد سوى أن أؤنسك!

ثم تقدمت أكثر نحو الضوء. وظهرت لي فجأة في كامل فتنتها كأنما عيناي تفتحان عليها لأول مرة أو كأنها تظهر لي لأول مرة: جسد منحوت بعناية، أبيض، نهدان منتصبان، سرة غائرة وعجزة مليئة بلا اكتناز، وجه مورد، وشعر أسود فاحم ينزل ناعماً حتى يكاد يلامس الساقين:

ـ كل هذا السحر كان ملفوفاً في أسمال تشبه الثياب!

قلت لها حانياً:

ـ تعالي أشرح لك!

وجلست جنبي على حافة السرير كما جلست أمها من قبل لأول مرة:

ـ ماذا تريد أن تشرح لي، علاقتك مع زيزة؟

وذهلت:

ـ تعرفين؟

ابتسمت:

ـ أنت بسيط، ساذج، أو أهبل، لكنك مسكين، من لا يعرف في هذا البيت؟

ازداد ذهولي:

ـ حتى الشيظمي يعرف؟

انفرجت أساريرها تماماً:

ـ لا تشغل بالك به!

وأصررت:

ـ هل يعرف حقاً؟

لكنها ظلت تبتسم وتقول:

ـ لا تشغل بالك لا بالشيظمي، ولا بالسفناج، فكر في نفسك!

واستغربت:

ـ وما دخل السفناج في الأمر؟

فقالت:

ـ يبدو أنك مفتش حقيقي وليس فقط مساعد مفتش، لم لا تفتش عن سعادتك أولاً في كل هذا الحطام؟ هل تريد أن تجرب من الأحسن، أنا أو زيزة؟

قلت لها غاضباً:

ـ ولكن زيزة أمك!

قالت لي ساخرة بلطف:

ـ إنك بالفعل طيب ومسكين، زيزة ليست أمي، أمي الحقيقة حليمة، تلك التي نسميها الخالة حليمة، وقد ربتني زيزة، منذ صغري، وأرضعتني، كما أرضعتك، من ثديها اليابس، فلا أنا ابنتها بالرضاع ولا بالدم، كما أنك لست ابناً لها بأي وجه من الوجوه، زيزة تربينا لتحلبنا، أو تلهو بنا، وتحلم بنا، تنشط

أحلامها، عندما ننضج، ثم تسلمنا...وتبحث عن ابن آخر أو بنت أخرى، لهذا الغرض ذهبت إلى بويا عمر، لتتخلص من كابوسك، لتجدك هناك في شاب أحمق أو شيخ أخرق!

شدتني كلمة "تسلمنا":

ـ قلت"تسلمنا"، لمن ؟

اكفهر وجهها قليلا:

ـ أنا أسلمتني إلى السفناج!

آه، السفناج؟

ـ لكنه يكبرك بسنوات ضوئية!

ازداد وجهها كآبة:

ـ هذه إرادة أمي زيزة!

وتذكرت سؤالي الذي غاب في الدهشة:

ـ وأنا، لمن تريد تسليمي؟

ضحكت حتى قلت لها:

ـ حذار، قد توقظين الشيظمي!

فقالت:

ـ على كل حال ليس للشيظمي، لو فكرت!

وشاهدت خبثاً كبيراً في ضحكتها التي أصبحت ابتسامة عريضة:

ـ لك، طبعاً!

اختفت الابتسامة وهي تقول:

ـ لم أكن أعلم أنك قد تفهم بمثل هذه السرعة، فما رأيك إذن: أبقى معك أم أنصرف؟

قلت:

ـ إن الخزي حين يبدأ يتكفل الشيطان وحده بنهايته!

قالت:

ـ وتعتقد، مثل بقية الرجال، أيها الرجل الساذج، أن الشيطان امرأة، بينما هو ذكر!

فكرت:

ـ قد لا يكون زيزة، ولا أنا، على كل حال!

وكانت قد تسللت كاملة إلى فراشي وهي تقول:

ـ ماكاين باس، أسيدي، أنا الشيطان، عريني و عدبني!

جبيلو

ـ "الجبل" بعيد، والطريق إليه وعرة، يردد عزيز كأنه يفكر في استحالة وسائل الوصول إلى هناك، أو يحاول أن يقنع نفسه بضرورة الذهاب إلى الجبل على كل حال!

ثم يتابع:

ـ ولكنا سنترك السيارة بعيداً، ولست أدري إن كنت ستقوى على صعود كل تلك المسافة!

"الجبل"، على ما يبدو من رؤيتي الجغرافية المتواضعة جداً، يوجد وسط المثلث الذي يتكون من الشاون، تطوان، ووادي لو، وإن كان ظهر لي، في البداية، أنه أقرب إلى وادي لو، فقد قال لي عزيز:

ـ إنه أقرب، مشياً، إلى الشاون!

سلمني عزيز إلى جبيلو:

- هذا عبد الله، جبيلو... وهذا المهدي، المريض، اعتن به جيداً، أجبيلو، فهو مثلك، بمثابة الأخ أو أكثر!

وتفحصني جبيلو قليلا بهدوء غريب ثم قال:

- اطمئن، أخاي عزيز، في قلب عيني، أخاي، صاحبك صاحبي!

وعاد عزيز إلى السيارة ففرش لي جبيلو حصيرة بالية، في ذلك الكوخ الذي يسميه " البيت"، وأعطاني غطاء تشم منه رائحة الفحم الخشبي ثم قال:

- عليك أن تستريح، نم وسأرجع إليك غداً صباحاً!

لكنه لم يذهب، بقي جنبي إلى أن نمت، ربما تكلم كثيراً، وقد يكون حدثني عن أشياء لم أتذكرها من فرط التعب، وقد يكون نام قربي إلى الفجر... غير أنه دخل علي، مع بداية شروق الشمس، حاملاً صينية تفوح منها روائح الشاي والملوي والزيت البلدية:

- صباح الشمس، الجو رائع هذا الصباح، يستحق النزول إلى البحر باكراً!

ووضع الصينية بيننا على الحصيرة البالية:

ـ الله يخليك، أخاي، اطفي علينا هذاك السم حتى تفطر... صابح على الدخان، مالك، قاتل سيدنا عيسى؟ باسم الله على ما قسم الله، تفضل!

ومد لي طرفاً من الملوي مع كأس الشاي فتناولت الكأس وأنا أتردد في أخذ الملوي:

ـ لا أقدر على الأكل في مثل هذا الوقت، متعود على القهوة والسجائر فقط حتى يحين موعد الغذاء!

بقي الملوي معلقاً في يده:

ـ هذا الصباح وجهك زاد اصفر، البارح كنت أحسن، ما بك؟ ينبغي أن تأكل لتقاوم هذا الشحوب، خذ، قل باسم الله وسترى كيف تفتح شهيتك!

وقلت:

ـ باسم الله!

خجلت من أن أترك يده معلقة في الملوي بهذا الشكل، فحررت يده لكني وضعت تلك القطعة أمامي فوق كأس الشاي وحاولت أن أشعل سيجارة أخرى:

ـ ها عار مولاي عبد السلام، اشرب غير الشاي، أنا عارف شهيتك مقطوعة بسبب هذا المصيبة، وشوف، يرحم باباك، اعمل واحد القضية: دخن معايا الكيف، اعمل غير النفحة إذا

ما قدرت على كيف، أحسن، والله العظيم، من هاذ سلاح الدمار الشامل!

استطعت أن أبتسم:

- بدل مصيبة بمصيبة أكبر منها، بدل زبيدة بزبيد!

وسحب قطعة الملوي من فوق كأس الشاي ومدها إلي من جديد:

- لا، أخاي، غير صحيح، أنا عندي ولد عمي في هولندا، وشاب على بال، آه، قال لي اليوم عندهم صيدليات للعلاج بالكيف، وقال لي في دول كثيرة، مثل سويسرا مثلا، عندهم مزارع من هذا العشبة العجيبة، وإذا قالوا لكم حاربوا هذا الزراعة راهم غير طامعين في احتكارها، الكيف ما ممنوعش عندهم!

أحسست بنفسي تنفرج تدريجياً:

- البارحة لم أكف عن التفكير في الوالد والوالدة!

وشعرت به سعيداً لانفراج أساريري:

- الله يسمعنا غير الخير، ما قادرين على شين في ها الصباح الزين!

تابعت بلذة أليمة:

ـ الأطفال دائماً في حاجة إلى أن يتعلموا الحدود والمعايير من آبائهم، شيء مهم ينفعهم حتى آخر أيامهم...

وسكتُ خائبا فقال:

ـ يعني، بالفصيح المفيد؟

ترددت لكني أجبيت:

ـ والدي كان إذا رأى الحب، أو المتعة الكبيرة، يزحف نحوه، حوّله إلى قصيدة، وكانت والدتي عندما يداهمها الحزن، أو الشقاء، تجعل منه حكاية، فيتحول الناس من حولنا، حتى الخصوم والأعداء، إلى قصائد وحكايات جميلة...

قال وهو ينفث دخان الكيف من فمه وأنفه سعيداً:

ـ ولم لا تفعل مثل أمك أو أبيك، تحول الدنيا إلى قصائد وحكايات جميلة تفرح بها وتسعدنا معك؟

أحرجت كثيراً حتى تمنيت لو نغلق هذا الحديث:

ـ ليست لدي أية موهبة من مواهبهما، مع الأسف!

وشعرت بضيق كبير، كأني ولدت بلا رئتين، لكنه قال:

ـ ولا أنا ورثت شيئاً من مواهب أبي أو أمي، كان والدي جندياً في الجيش الإسباني، وكان سعيداً بأداء دوره في ما كان يسميه "تمدين المغرب"، يستطيع أن يحكي لك عن مد الطرق والسكك الحديدية وخيوط الهاتف والكهرباء كأنها معجزات،

كل الكوارث يحولها إلى بناء، على عكس أمي التي كانت ترى أن كل شيء انتهى مع تقسيم المغرب إلى إسباني وفرنسي وهزيمة عبد الكريم الخطابي... في هذا الجو العائلي لم أكن أعرف يدي من رأسي، وحين وصلت سن الدراسة، بعد مرحلة الكتاب، طلبت أن يرسلوني عند عمي بالرباط، هناك دخلت إلى مدرسة لم أمكث بها سوى ثلاثة شهور، أي حتى حلول عطلة الخريف، قلت لأمي وأنا أساعدها على طحن الذرة:

ـ هل أستطيع أن أسأل سؤالاً كبيراً؟

ضحكت حتى بانت ضرسة العقل:

ـ كبرت، يالعفريت، اسأل؟

حاولت أن أجد العبارة السليمة:

ـ من أين جاء أجدادنا الأوائل؟

يبدو أنها لم تفهم في البداية:

ـ من الجبل، امنين؟

أحسست بالكثير من الخجل، أنا الذي قضيت في المدرسة ثلاثة أشهر:

ـ أنا أقصد الأوائل جداً، القدامى جداً؟

تغيرت سحنة وجهها:

ـ من الجبل، قلت لك، من البحر؟

ازداد خجلي حتى بدأت أتلعثم:

ـ معلم الفرنسية يقول من فرنسا، بلاد الغول!

توقفت عن الطحن وأخذت تتفحصني مستغربة:

ـ وتصدق أن أجدادك من سلالة الغول، حيوان!

وحاولْ أن تشرح الآن للعزيزة...قلت مستدركا:

ـ بلاد الغول، الغولوى، وليس الغول الحيوان!

قالت:

ـ الغول، بالعربية، أو الغولوى، أنثاه، حتى لو كانت بالفرنسية، حيوان واحد... ذكر وأنثى... يالحيوان... وماذا يقول معلم العربية، لا يقول شيئاً، كالعادة؟

تنفست الصعداء بصعوبة:

ـ يقول إنهم جاءوا من الحجاز، من اليمن، الجزيرة العربية!

عادت إليها سحنتها السوداء:

ـ يعني الحجاز هو موطن الغول، أو الغولوى، الأصلي؟

فعادت إلي حيرتي من جديد:

ـ لا، يامّا، الحجاز موطن الرسول صلى الله عليه وسلم!

فاكتفت بالقول، وهي تعود إلى طحن الذرة:

ـ صلى الله عليه وسلم!

منذ ذلك اليوم ابتليت بهذه العشبة، خرجت من البيت خائباً، وجدت الأطفال يتسلون بتدخينها، فدخنت معهم. وعاد والدي من الخدمة بعد ثلاثة أشهر فسألني مهدداً:

ـ ماذا تفعل هنا، لِمَ لم تذهب إلى المدرسة؟

تدخلت أمي بدهائها المعروف مع أبي:

ـ إنه مريض، قد يكون ضربه جن في الرباط، أو شاف الغول!

وأمرتني بأن أتمارض وأن ألزم الفراش حتى يعود إلى الخدمة:

ـ إنه يخاف من الجن ولن يقدر على عرضك على طبيب إسباني!

وتولت بنفسها تطوير مهاراتي المتواضعة في القراءة والكتابة، أحياناً كانت تستعين بفقيه الكتاب مقابل بعض البيض أو اللبن:

ـ عندما تكبر ترحل، مثل أخوالك، إلى ألمانيا أو هولندا، أو على الأقل إلى إسبانيا!

هذه هي المهارة الوحيدة التي تعلمت من أهلي في البيت: الحلم بالهجرة! ورحلت بالفعل إلى كل من ألمانيا، ثم هولندا، ثم إسبانيا. فلم تعجبني الإقامة هناك: في كل مرة كان يتعبني بسرعة إيقاع الحياة وفراغها المتسارع. عدت إلى هذا الجبل وما لبثت أن اكتشفت أني تعلمت مهارة أكبر: زراعة الكيف. إنهم

يحاربوننا الآن، ولكن مستقبل هذه العشبة سيكون مستقبلاً مدوخاً. ثم إنني لا أزرع منها في هذا الوقت الصعب إلا ما يكفيني لعيشي اليومي واعتدال مزاجي أو فتح شهيتي للأكل، ليس هناك ما يفتح الشهية أكثر منها!

وقلت لجبيلو مداعباً:

- رائحتها تكفي لفتح الشهية، انظر كم أكلت من الملوي، هذه معجزة اليوم!

فقال وهو يعيد ترتيب الصينية:

- اجمع راسك، أخاي، وخلينا من لكلام الخاوي، نوض نهبطو للبحر نكحلو عينينا، ونزيدك: لبحر يجوع أكثر من الكيف، نوض، توكل على الله ونوض، أخاي!

سألته، قبل أن أنهض:

- حكاية هذه الهجرة صحيحة، أعني ذهبت بالفعل إلى كل هذه الدول؟

عاد يجلس في مكانه حائراً:

- بطبيعة الحال، لماذا تشك في كلامي؟

ارتبكت بدوري:

- لا، فقط، فقط بدت لي حكاية بلاد الغول أقدم من سنك، على الأقل بعشر سنوات!

هب واقفاً:

- تعني ألفتها، ومن بعد؟ نوض، أمسكين، تشبع هوا، افتح صدرك المسدود، نوض!

وسبقني إلى الطريق.

قميص النوم الأزرق

كم يذكرني هذا البحر الهادىء، النظيف، بذلك البحر الضاج ليل نهار، الملوث، مثل مزابل كل مدننا العامرة: أذكر ميناء المحمدية، وموانيء أخرى، بكثير من الأسى والتوجع!

جرى الخبر كالرجاء:

- الرابيلات ستصلكم هذا الأسبوع، فتهيئوا للحفلات والأعراس الجميلة!

أرسلت في طلب الوالدة. وجاءت المسكينة إلى بيت زيزة محملة بكل ما تستطيع، مترقبة للكنز الكبير الذي ستعود به إلى "عرصة القاضي"، ذلك الذي سيأتيها من أول راتب لابنها المفتش المساعد في المالية: الفلوس!

تخيلت الكثير، ورسمت الكثير في ذهني، تخيلت حتى "البيضا" تقول:

ـ سمعوا، يا أهل لبلاد، لكبار منكم والصغار، وليخبر الحاضر منكم الغائب، وما تسمعوا غير أخبار الخير: المهدي، مفتش المال، المهدي ولد محمد، الأمير الشاعر، جايب صندوق عامر فلوس!

وعلى غير عادتي رجعت إلى بيت زيزة ، أنا و الشيظمي في نفس الوقت، حوالي الساعة السادسة والنصف، إذ أصبحت متعوداً على أكل ساندويتش مع قهوة، خارج البيت، مباشرة بعد مغادرتي للمكتب، وفي الغالب صحبة منير وعزيز.

بسطت الوالدة المائدة بالبيض، والعسل، وزيت الزيتون، والزبدة البلدية، وألوان الفطائر. وكانت زيزة منبسطة تدور علينا بإبريقي القهوة والحليب، وتستعجلنا في شرب كؤوسنا قبل أن تبرد، بينما كانت الوالدة تتفنن في صنع الساندويتشات قبل أن تنتبه إلى أني لم آكل سوى ساندويتش واحد:

ـ ما كلتيش، والو، شفت وجهك أصفر، مريض؟

لم أعرف ما أقول فتدخل الشيظمي:

ـ هذه عادة موظفي المكاتب المظلمة، يأكلون القليل جداً وتصفر وجوههم بسرعة بسبب قلة الشمس والرطوبة!

ابتسمت له شاكراً لكن أمي تابعت:

ـ أنت مفتش كبير، قل لهم يبدلوا لك المكتب بواحد كبير وتدخل ليه الشمس، أنا نمشي معاك ونقولها لهم إذا ما قدرت أنت!

آنئذ تدخل السفناج، الذي لم يتناول أحد شيئاً من إسفنجاته المطفية في العسل، على غير المعهود:

ـ زني المحارم لا يمكن أن يمر بلا عقاب من عند الله تعالى، وسأحكي لكم حكاية طريفة في الموضوع وقعت اليوم فقط!

توقف ليجمع أنفاسه، أو وقاحته، أو قلة ضميره، بينما ساد صمت رهيب بيننا جميعاً، وأخذ كل واحد منا ينظر إلى الآخر مرعوباً حتى نطق الشيظمي:

ـ أذكر الله، أسيدي فلان، واحشم على عرضك، أنت تعرف الله، فين؟

مسح السفناج يديه من العسل والزيت، وكان وجهه يتصبب زيتاً كثيفاً، ثم جمع لسانه وقال:

ـ والله يا سيدي ما قصدي غير الحكاية!

فرد عليه الشيظمي وقسمات وجهه لا تزال ترتعش:

ـ احكيها لأمك، الله يخليك!

فسكت السفناج وأخذ يمسح الزيت الكثيف من وجهه، بينما أخذت أنظر إلى الشيظمي كأنني أراه لأول مرة: رجل قوي البنية، غليظ اليدين والكتفين، رقبته كرقبة ثور سمين، وشارباه طويلان وحادان، وقد زادهما الغضب حدة، لكنه وسيم مع ذلك، فيه شيء من سحر الرجال الأقوياء...فلماذا لا أحبه؟

وفجأة يتناهى إلينا صوت زيزة تترنح في المرحاض، قالت لي أمي:

- أنقذها!

نظر إلي الشيظمي نظرة غريبة، كأنه يستعطفني:

- ماذا يريد بالضبط؟

وقالت لي الكُوطة:

- ستموت، هذه المرة، إذا لم تنقذها!

فهرعنا إليها معاً، وتعاونا على انتشالها بصعوبة كبيرة من فتحة المرحاض التي كانت قد أدخلت فيها رأسها كاملة، حتى كادت الرأس تبقى هناك، والكُوطة وأنا كل واحد يجر من رجل...

غسلت الكُوطة وجهها ثم أدخلتها إلى غرفتها وغيرت ملابسها ووضعتها في الفراش لتنام، فنامت زيزة، والتفت الشيظمي إلى السفناج:

- يمكنك أن تجمع إسفنجاتك، فلا أحد يرغب فيها الآن، كما قد تكون لاحظت، والزيت المحروقة، كما تعلم، تتسبب في السرطان!

وجمع السفناج إسفنجاته خائباً، فرماها في سطل القمامة وانصرف بينما التفتُّ إلي أمي وهمست:

- فاجعة العقم، وغياب الخلفة الله يستر، كالكفر، خروج على الدين، فيا ربي ارحمنا ولا ترينا عقيماً في ذريتنا الصالحة!

فلما لاحظت دموعي ضمتني إليها صامتة حتى توقفت عن البكاء ثم قالت لي:

- نوض تنعس، خدمتك تتسنى فيك، نوض أوليدي الله يرد بك ويشافيك!

وخيل لي أنها تعرف كل شيء عني وزيزة، عني والكُوطة، عنهما والسفناج، عن الشيظمي و"الشيخة" الماجنة التي تذكر من حين لآخر كما يذكر كلب، عن كل مغامرات وحبائل زيزة...

- أمي زيزة!

فأردت أن أقول لها:

- سامحيني!

ثم أردت أن أقول لها:

- دعيني أنم في حضنك!

ثم:

- خلصيني!

لكنها قالت فيما يشبه الحلم:

- أبوك ورثك لعنة النساء ولم يورثك الشعر!

قلت في ما بدا لي غضباً:

- وأنت ورثيني الطيبة، أعني السذاجة، فلم تورثيني فن الحكاية!

ثم اختفت في اللحاف وهي تقول:

- سرْ تنعس الله يرضي على ولدي، كل واحد ليه امتحان عند الله في الدنيا قبل الآخرة، اصبر وكن رجل، وسيرْ تنعس، مازال تشوف و تشوف !

كيف أنام في هذا البركان من العار، من الذل، من الفاجعة، من الدونية، من الفضيحة؟

بعيد منتصف الليل جاءتني زيزة في قميص نوم أزرق، جديد تماماً، يستعرض فيه جسدها كل مفاتنه، سألتها:

- لماذا فعلت ما فعلت أمام أمي؟

قالت وكأنها تسخر مني:

- أولاً، لا تخف، فكلهم يشخرون، ثانياً، لا تنتظرني، منذ الليلة، فأنا قد وجدت غيرك، ثالثاً، يمكن لك أن تفعل ما تشاء

مع الكُوطة، رابعاً، هذه الليلة سأخلع قميصي لأودعك، أما أمك فاترك أمرها لي!

وخلعت قميصها لأول مرة في ذلك النور الخافت... من قبل، وطول ذلك الوقت، كانت لا تمنحني سوى الشقوق الظاهرة من قمصانها الشفافة: الامتحان الأكبر، يا أماه!

- يا ربي لماذا تمتحنني بهذا الشكل؟ بهذا الكفر؟ بكل هذا السحر ثم تتركنني أستسلم صاغراً لجسد يقتل في الكرامة والإرادة، عارياً كله هذه المرة كأنه الجمر؟

- عض بوك، يحسب لك أنا أمك بالصح، أنا ما في حليب، غير لعسل، مص زيزة، كاملة!

وبعدها مباشرة جاءت الكُوطة:

- الآن عندنا الضوء الأخضر بشكل رسمي، بمباركة ورضى أمك زيزة، أخويي، وسترى، دين أمك، من الأفضل، الكُوطة أم زيزة، أنا سأفتح جسدك كاملا على أوسع أبواب الجحيم الذي يفضل كل ألوان النعيم، سترى دين أمك!

وخلعت نفس القميص الأزرق الذي كانت ترتديه، قبل ساعات، أمها زيزة!

في الصباح الباكر... في الصباح؟ وهل كان هناك ليل كي يكون إصباح؟ قالت لي أمي:

- اجلس قربي!

فجلست خائفاً، قالت هامسة:

- البارح وقف علي بوك الله يرحمه ويجدد عليه الرحمات، قال لي: المهدي لازم يتزوج قبل الصيف، وأنا غادية اليوم نشوف لك امرا من لبلاد، امرا تكون زينة وقوية وتحمر لوجه!

غالبت دموعي:

- ولفلوس، أمي؟ اصبري حتى نجيب لك لفلوس!

ردت متجهمة:

- يلعن جد بوها لفلوس!

وخرجنا معاً أمام دهشة الجميع صامتين، مطرقين، حزينين، وحيدين ومتضامنين. أوصلتها إلى محطة الحافلات. قالت لي وهي تتوسع في مقعدها:

- وجد راسك لنهاية وقت لحصاد!

ماذا سأكون حصدت؟ سأنتظر حكايتها الجديدة: لا بد أنها ستجعل من كل هذا حكاية جديدة، حكاية شقية، لكن جميلة؛ أمي الجميلة!

قبيل العاشرة جاءنا الشاويش علال يخبرنا بأن رواتبنا قد وصلت أخيراً. خرجت صحبة عزيز ومنير بشيكاتنا قاصدين مكاتب الخزينة. وبعد نصف ساعة كان كل واحد منا يحمل في

جيبه مئات الأوراق النفيسة. جلسنا في أقرب مقهى صامتين حتى قال عزيز:

- ما رأيكم في أن نبدأ في الانتقام من هذه السنة الضائعة منذ الآن؟

منذئذ تعلمت الشرب والتدخين والتقيت من جديد بالشيخة، صاحبتي، وصاحبة الشيظمي!

لالولي

عاد عبد الله جبيلو من عوم طويل فرحاً كطفل وسألني:

ـ لماذا لا تنزل إلى الماء؟

حاولت أن أهرب من السؤال:

ـ في الحقيقة لم أعد أطيق العوم في ماء البحر!

واعتقدت أنه قد فهم أني لا أحسن العوم، لم أتعلمه في أية فترة من حياتي، إذ قال لي:

ـ أم تراها البنت التي تلعب هناك في الماء؟

فوجئت حقاً، فقد كانت هناك بنت في حدود الخامسة عشرة، مكتملة تماماً كامرأة، تلعب وحدها في الماء:

ـ البنت صغيرة جداً!

ولكنه لم يصدقني، وأنا كنت أكذب بالفعل، فاحترم حرجي:

- تعرف، أخاي، أنا بني آدم كله اللي، في المثل، ما يمرض، ما يتجنن، ولو مرة مرة، مانعدوش بني آدم، وما عنديش فيه الثقة، يقدر يكون إما ملاك وإما محتال، وأنا ما قادر على ملائكة ولا على محتالين، أنا غير ابن آدم، من الما والتراب، أسيدي، والما يقدر يحمق والتراب يقدر يثقل ويمرض!

يقولون إن تلك العشبة تداوي، تنطق الأبكم، لكن كل إناء لا ينضح إلا بما فيه، وفي جميع الأحوال أفضل أن أتعامل مع حكمة جبيلو على أنها، على الأقل في بعض الأحيان، نوع من التهديد، أو التنبيه:

- أصدقني النية، والقول، إذا كنت تريد أن تكون صديقي، طلب مني!

- اسمع، أجبيلو، أنا رجل مريض، لم تعد لي القوة على الحلم، على الحلم فقط، بمثل هذا النوع من النساء، ولا بأية امرأة أخرى، تفهم؟

من اين له أن يفهم أن زبزة كانت تسممني وهي تمتعني، و تذبحني وهي تستمتع بي، كما أن جسد الكوطة لم يكن غير سم زبزة ولكن أشد فتكاً أو نفاذاً؟ من أين؟ هل جرب ما يراد ولا

يراد في نفس الوقت والقوة؟ هل عرف الشيخة لالولي كما عرفتها: تعطي لكل واحد من الأطفال بوسة فيبوسون ويهربون منها؟

قهقه طويلاً حتى أخذ الكثيرون يضحكون من حولنا فقلت له:

ـ أنا ذاهب!

تبعني ولم ينطق إلا ونحن نصل إلى قمة الجبل بعد أن سعلت كثيراً:

ـ تعرف، ألمهدي؟

ـ ماذا، بالسلامة؟

ـ عندي دواك!

وابتسمت فأكد جاداً:

ـ والله العظيم!

سايرته في ما تخيلته هزءاً:

ـ تكلم، أسيدي، قل!

قال:

ـ عندنا، هنا في الجبل، أربعة أنواع من الأدوية: الأعشاب، مثل الكيف، والعسل، والسمن الحايل، والصامت، عمرك سمعت بالصامت؟

ولما أجبت بالنفي تابع:

- دواء سحري، نصنعه من العنب، ويشفي من الكثير من الأمراض، مثل هذه التي تعاني منها، سيكون عندك الصامت والسمن هذا المساء، وغادي تشبع ضحك، أسيدي مولاي، وتشبع من لحماق!

فضحكت حتى نسيت سعالي ونحن نتابع الصعود!

حملنا ابن خالة لعزيز في سيارته، من المحمدية إلى عين الذياب مباشرة. شربت البيرة الأولى فأحسست بالرغبة في القيء، رغبة قاومتها حتى البيرة الثانية التي أشعرتني بالدوخة، دوخة قاومتها حتى البيرة الثالثة التي أحستني بالنوم، نوم قاومته حتى البيرة الرابعة التي زادت حاجتي إلى التبول، تبول قاومته حتى البيرة الخامسة التي اضطرتني إلى القيام إلى المرحاض فورا...

- كيف استطعت أن أشرب خمس بيرات أنا الذي لم يسبق لي أن قدرت على شرب واحدة؟

- تعلم أن أصعب شيء هو البداية، في كل شيء، حتى في الضحك أو الموت، يقول جبيلو!

كنت أفكر في لعنة القميص الأزرق كلما شعرت بالرغبة في التوقف عن الشرب! وأنا واقف أبول تذكرت صوت أمي الذي كان ينهاني عن التبول واقفاً، خلتها معي لحظة حتى قلت لها:

ـ أنا أبول على زيزة، وعلى الكُوطة، وعلى الشيظمي، وعلى السفناج، وعلى الزلايجي العشيق الجديد لزيزة!

وخيل لي أني أسمعها تقول:

ـ في هذه الحالة تبول واقفاً، أفضل لك، ولا تفكر في نفسك!

وخلفها كان جبيلو يهمس:

ـ ولكن ارفع إحدى رجليك حتى تنال الأجر كاملاً!

ثم وأنا راجع إلى أصحابي لاحظت صورتي في مرآة كبيرة فتوقفت عندها وشرعت أكلم نفسي:

ـ يالمهدي، يالسكايري، يا مسخوط الوالدين، كن رجل، ألحمار، وعندك تسكر بسرعة ويضحكوا عليه السفهاء، أيها السفيه!

حتى لاحظت وجود جبيلو فيها وهو يبتسم:

ـ صعبة البداية فقط، الباقي كله مسألة تعود ومزاج!

ـ لماذا تذكرته؟ أنا لم أكن أعرفه في ذلك الوقت!

لا أنا تذكرت وأنا أحكي، وربما في سكرات تالية، فنحن لا نتذكر كل هذه الأمور في السكرة الأولى، وربما لأني تذكرت، الآن

كذلك، حالة العجوز السكير، القذر، ذلك الذي كنا نطارده، ونحن صغار، حتى تخرج زوجه العاقر وتنتشله منا وهي تصيح:

- سيروا، الله يعطيكم حالته، والله حتى تكبرو، وتسكرو، وتتبهدلو، وقولوا قالتها هنية وكالة الشحمة خضرة، غير تسنوا، اللي قيدو وبهدلوساير يفتل ليكم، ها نوبتكم جاية، وذكروني، آه، عندكم تنسوني، ألكلاب!

- ذكرناك بالخير، أيتها التعيسة، يا بومة الحي، نذكر حتى كيف كان يشبعك ضرباً وهو في تلك الحالة من السكر!

لا، هذه تذكرتها بالفعل، في تلك السكرة الأولى، ورددتها حتى سمعني أصحابي وسألني عزيز:

- مع من تتكلم؟

اعتذرت:

- مع نفسي، تذكرت شخصاً كان يبالغ في السكر!

فهددني ابن خالته:

- لا نريد مشاكل، كلنا موظفون محترمون، وإذا أحسست بالتعب نرجع كلنا إلى المحمدية!

ولكن منيراً طمأنه:

- المهدي رجل طيب، وهذه أول مرة يشرب فيها بيرة كاملة، فلا تخف، إنه على حسابي!

ولكن الرجل المهدد أكد:

ـ الطيبة وعدم التعود على الشرب...كلها عوامل تدعو إلى الاحتراس، أو على الأقل إلى عدم المبالغة في الكأس!

فقلت وأنا أتمنى لو أخنقه:

ـ يا رجل اطمئن!

فوقف عزيز وقال:

ـ نغير هذا المكان!

أما في السيارة فقد بالغ ابن خالته، هذه المرة، في استنطاقي حول مدى احتمالي لما شربت حتى قلت له:

ـ قد يكون من الأفضل لكم ولي أن أشرب وحدي، اتركوني في أي مكان، سآخذ طاكسي!

ولكن عزيز ومنير طيبا على خاطري وقال عزيز:

ـ قصده الاحتراس فقط!

فأكد ابن خالته وكأنه خارج من مسلسل مصري:

ـ الزيادة في الحرس حرس، دائماً، ياعم!

فقلت:

ـ أنا دائماً حريص أكثر من اللازم، من أجل خاطر أمي!

فضحكوا وسكتّ حتى دخلنا إلى ملهى آخر. وبمجرد ما حطت البيرة طلبت سيجارة من عزيز، ثم طلبت منه أخرى مع البيرة الثانية، وثالثة مع البيرة الثالثة فسألني ابن خالته:

- لماذا تطلب كل هذا العدد من السجائر؟

لم أدرك مرماه لكني أجبت:

- يبدو أنها تساعدني على أن أبقى صامتاً!

قال:

- اشتر علبة إذن!

قلت:

- معك الحق، ولكن من أين؟

ضحك مستهزئا:

- من النادل، تريد علبة؟... حميدو، هات علبة... للسيد!

وجاء النادل بسرعة بعلبة سجائر كاملة في الصينية مع البيرة. غير أن عزيز طلب من ابن خالته أن يرافقه لحظة إلى الخارج فقال لي منير:

- لقد خرج يؤدبه، عزيز يحبك ويقدرك، ولكن أنت...لا تهتم به، اتركه لي ولعزيز!

لم أرد. اكتفيت بإشعال سيجارة وأخذت أمتصها بنهم حتى عاد عزيز صحبة ابن خالته وقال شبه آمر:

ـ نغير المكان!

وأدى أيضا من"صندوقنا الجماعي"، " الخزينة العامة"، واتجه نحوي:

ـ تعال تركب جنبي، وراء، أنت يا منير اركب جنب السوسدي!

همس لي:

ـ تذكر البنت التي أصبحت شيخة.

الشيخة لالولي التي حدثني عنها أكثر من مرة؟

قلت هامساً بدوري:

ـ طبعا أذكر لالولي!

قال فرحاً:

ـ نمرتها بعد ربع ساعة، إذا كانت هي بالفعل، فهل تريد أن...؟

قاطعته سعيداً:

ـ حالاً!

ودخلنا ملهى واسعاً كثير الكآبة والظلام كانت تلعب فيه فرقة شابة، وقد علا ضجيج السكارى على ضجيجها بشكل تام. وجاء النادل بصينية ثم بثانية ثم بثالثة...لكن لالولي لم تصعد إلى الخشبة. استفسرت عزيز فرد معتذراً:

ـ قد أكون أخطأت الاسم، أو المكان، وقد تكون غيرت المكان...هذه فرقة شيخات وليست لالولي معهن، نسأل عنها النادل.

ووقفت متمايلاً:

ـ أيها الناس، أنتم الذين تشبهونني كما لا أشبه لا أبي ولا أمي، هل تعرفون الشيخة لالولي؟ أعطونا الشيخة لالولي الله يرحم الوالدين!

وحاول منير وعزيز إجلاسي وإعادتي إلى مكاني فلم يفلحوا حتى أحاط بي حراس الملهى:

ـ إجلس من فضلك واحترم نفسك!

وفي هذه الفوضى شاهدت السوسدي يهرب فقلت له:

ـ لا تهرب، يا سوسدي، أنا معي مال أستطيع أن أشتري به هذا الملهى كله!

ثم أخذت أخرج الأوراق من جيوبي وأنثرها من حولي. وكذلك فعل عزيز. إلا منير، فقد ظلّ جالساً في مكانه يراقب ما يحدث قبل أن ينادي على شخص كان ينظر إلينا من بعيد ويشهر بطاقته المهنية في وجهه، وهو يخرج في ذات الوقت بطاقتينا من أحد جيوبه ويمدها إليه. حينئذ صاح الرجل في زبانيته:

ـ أطلقوا سراحهما فوراً!

وشرع يعتذر لنا بائساً ثم جيء لنا بأوراقنا المالية، التي أخرج بعضها من جيوب الزبانية أو بعض السكارى، وقال لنا:

ـ تفضلوا إلى إحدى قاعات الشرف، هذا الموضع لا يليق بمقامكم!

وكيف لا أتذكر جبيلو الآن؟ من لا يمسه حمق ولا مرض قد يهلك...

ـ يا خويا، يا عبد اللّه، واللّه!

في قاعة أنيقة، تبرق نظافة، دعانا الرجل إلى الجلوس وهو يعتذر ويردد:

ـ تشربون ما تشاءون، وإلى ما تشاءون، على حساب الدار... واطلبوا الأكل من فضلكم، يسعدنا أن تذوقوا أكلنا!

في رمشة عين امتلأت مائدتنا بيرة وألواناً كثيرة من الطعام، ثم أطلت امرأة خلتها في البداية، وهي ما تزال في الباب، زيزة، من كثرة شبهها بها، قالت والبسمة تنير مع المصباح:

ـ أهلاً بالسادة المفتشين، أهلاً وسهلاً، ومالكم، أسيادنا على كل هاذ الفوضى؟ من الأول كنتوا تقولوا المفتشين طالبين لالولي وتجي لالولي على كفوف يديها!

سألت عزيز مذهولاً:

ـ هذي زيزة؟

رد مبهوراً:

ـ ولا، هذي لا... لو... لي...!

نظرت إلي طويلاً:

ـ والأخ، أسيدي عزيز...؟

السعدية البقرة، كانت تشبه البقرة حتى في صوتها، جاء بها أبوها إلى خالتها لتربيها بعد أن توفيت أمها وقرر هو أن يتزوج من جديد. كانت في حوالي العاشرة تشبه البقرة بكل المقاييس. وكان في حومتنا تسعة بيوت، أربعة منها خِرَب، فسكنت مع خالتها في إحدى تلك الخِرَب. وكان أترابي يتسللون إليها الواحد بعد الآخر في الظلام ليختطف كل واحد منها قبلة ثم يهرب، فتنادي عليه:

ـ لماذا تهرب؟

ثم بدأت تخرج إلينا من حين لآخر وتسأل:

ـ أيها الأطفال لماذا تهربون مني!

حتى بدأنا نخاف منها لأن في سلوكها شيئاً من الحمق، مهبولة!

كنت الوحيد الذي لم يقربها، وكان الأطفال يستعجلونني، بينما خوفي، وخوفهم، يزداد، فصادفتني عائداً مرة، ليلاً، بالخبز من الفران فسألتني:

ـ لماذا أنت الوحيد الذي لم يأت ليخطف مني قبلة؟

ثم جرتني وسط الخربة وشرعت في تقبيلي. وشرعت تنتظرني كل ليلة وقت الإتيان بالخبز من الفران، ثم أخذت تأتي عندنا إلى البيت وتقول لأمي:

ـ أمي لالة، المهدي زوين، ياك؟

وفي كل مرة ترد الوالدة:

ـ سكتي، ألهبيلة!

ومرت شهور، أو سنوات، وهي تسأل أمي نفس السؤال وأمي ترد بنفس الجواب حتى قالت لها الوالدة ذات صباح:

ـ خلي عليك المهدي، وقريه، مازال طفل صغير!

فخرجت تبكي، وبكيت أنا بدوري، بكيت حتى قالت لي أمي:

ـ إنها تخرج مع الرجال الكبار، تبغي تمرض، تمرضك؟

وسألت هي عزيز من جديد بعد أن نسيتنني لحظة:

ـ ما عندك جواب، ألأخ الكريم؟

فسألتها بدوري:

ـ السعدية، مازلت تخرجي مع الرجال لكبار، الرجال لمراض؟

فسقطت الكأس من يدها، بينما سقطت السيجارة من اليد الأخرى وهي تتأملني مذعورة قبل أن تسترجع الذاكرة:

ـ المهدي؟ يلعن والديك، ياولد الكلب، ليك وحشة كلب!

تدخل عزيز ليفك الاشتباك الطويل بيننا:

ـ لالولي، راك في محل الخدمة، أولا نسيت راسك؟

تهاوت على الأريكة:

ـ يلعن بو الدنيا وفعايلها!

وأخذت تتأملني من جديد ثم ارتمت علي وشرعت في تقبيلي حتى صاح الرجل الذي دعانا إلى هذه المقصورة:

ـ لالولي، حشمي شوية، هاذ الناس، يعني، مفتشون، في المالية!

فتدخل منير الحكيم:

ـ تصدق أنهم عائلة واحدة؟

اعتذر الرجل وسألنا إن كان يلزمنا شيء، آخر فشكره منير الحكيم شكراً جزيلاً وعادت لالولي إلى الأريكة قرب عزيز وهي لا تزال تتأملني وتبكي وتقول من حين لآخر:

ـ خويي، خويي، خويي، مسكين!

فعاد منير الحكيم للتدخل من جديد:

- سمعي، ألالولي، الله يخليك، احنا جايين نسكرو ونضحكو، البكا يعطينا بالظهر، الله يخليك!

فسعت إلى أن تبتسم، وهي تعتذر، ولما استعادت ابتسامتها المهنية في تلك الغلالة من الحزن، قالت لي:

- احك لهم علاش سميتني لالولي!

وكانت تلك أول طرفة، تلتها نكت وطرائف كثيرة حتى الصبح، في تلك المقصورة، وحتى ظهر ذلك اليوم، في بيت لالولي!

مطابقة الاسم

مع اقتراب العتمة، كما في الصباح الباكر، تزداد حدة سعالي.

وها جبيلو يراقبني، وهو ينفث دخانه، ثم يتكلم:

- قلت لك، أخاي، عندي دواك؟

أغص في سعالي من الضحك:

- طبعاً، قلتها عشرات المرات!

إلا أنه يتمسك بلهجته الجادة:

- كل صباح، وقبل لفجر، تشرب نصف لتر من ماء العين، هاذ العين... شوف... هاذ العين شريفة، اعمل النية، الله يرضي عليك... وترجع تنعس... بعد لفجر، تفيق تبول، وتشرب نصف كاس صغير من هاذ الزيت البلدية، وترجع تنعس، ساعة ونصف أو ساعتين... تفيق وتاكل معلقة صغيرة من

هاذ لعسل، وعندك تخلطها مع حاجة أخرى، وممنوع الما بالخصوص حتى لوقت لفطور، تاكل لعسل وتخرج تتمشى، تتمشى مزيان وبلا ما تجهد راسك، غير دقة دقة، حتى تسمعني نعيط عليك للفطور... ورد بالك من الدخان، ممنوع الدخان قبل لفطور، فهمت، أخاي؟

خف سعالي فقلت مداعباً:

- وها أنت ترى أن سعالي قد زال بمجرد التفكير في الدواء!

غير أنه لم يتخل عن جده:

- اسمع، أخاي، المعقول، إذا حبيت المعقول، النية، أو الإرادة، هي كل شي في أي علاج، اللي ما يملك نية كاملة، أو إرادة تامة، في العلاج، يستحيل يتعالج بأي دوا، وما يقدر عليه أي طبيب، وسل لمجرب دائماً بعد الطبيب!

أخذت أنظر إلى ما تبقى من البحر البعيد جداً تحتنا يغرق في الظلام. إلا أنه تابع:

- وبعدها نشوفو هاذ لقضية، قضية الدخان!

وكأنه أدرك أني لم أعد أتابع حديثه، قال فجأة:

- وديك البنت، الصبية اللي كانت تعوم في لبحر هاذ الصباح، أنا فكرت ووجدتها غير صالحة ليك، هاذيك بنت لبحر، ولبحر ما صالحش ليك، بسرعة يقدر يعييك، بنت من

الجبل أفضل، الجبل يعلّم الحيلة، ويعلّم الصبر، ويدربك على الاحتياط والحذر، الجبل يعلمك التباثة ويقربك من السما...

وقاطعته فقط لأناوشه:

ـ وهذه أشياء كلها يعلمها البحر كذلك، الماء بصفة عامة!

فسكت قليلاً ثم تابع:

ـ الحيلة في الما غير الحيلة في الجبل، وفي البر كلو، والحركة مختلفة بين الما وبين البر، الما يجرك للتحت، والجبل يدفعك للفوق، فكر وتشوف... الجبلية غير البحرية، فكر، وشوف، واسأل!

وأردت الزيادة في مداعبته:

ـ وا كويفة هاذي، أجبيلو، عامرة بالحكمة!

فأطرق وشرع يتفحص ما تبقى من كيف في المطوي...فحاولت إنطاقه من جديد:

ـ ولماذا سماه القدماء بالكيف؟ ألأنه يرد الكيف، أي المزاج، ويعدله؟

إلا أنه ظل مطرقاً وتجاهلني، وانقلب عليه تحذيره لي!

ظلت الكُوطة الصغيرة تحذرني من زيزة، طوال تلك المدة التي اختفت خلالها زيزة في بويا عمر:

ـ احذر زيزة، ها أذني منك، حذار، أنت طيب وزيزة جنية، كل ما تنجح في جره إلى دائرتها تستعبده، تجرده من كل شيء، تمتلكه امتلاكاً تاماً، وشوف السفناج، كان صاحب أموال وعقار، وهو الآن يشتغل برأس مال لزيزة، وعندك أمي، الخالة حليمة، كانت تلعب في المال، هي ووالدي، اليوم كل شيء عندها لزيزة، ولاحظ الشيظمي، الشيظمي كانت عنده أرض ما يستطع الجن الأسود يحدها إذا جرى فيها!

ثم غيرت سجل لغتها وتابعت:

ـ في هذا الوقت كل ما يملكه الشيظمي راتب شاوش بإحدى الشركات، وهذا الراتب نفسه يصرفه الشيظمي دفعة واحدة، كل مرة في الشهر، مقابل ساعة لذة في حضن شيخة تسمى لالولي، زيزة هي التي علمتها الحرفة، وزيزة هي التي أمرتها بأن تقوم بتريش الشيظمي من راتبه، كل مرة في الشهر، وزيزة تستعيد الثلاثة أرباع من هذا الراتب بعد أن يكون قد دخل إلى جيب لالولي، ولالولي، مثل زيزة، من عنكم من القبيلة!

ـ وهل كانت زيزة شيخة بدورها في وقت من الأوقات؟

ـ لا أحد يعرف حقاً، زيزة كالبحر، تراه من الخارج هادئاً، حاضناً، أو هادراً، مبتلعاً، ولكن لا تراه إلا من الخارج، دائماً، ومن يغطس نحو أسرارها لا يعود أبداً!

ـ لها أسرار كثيرة إذن؟

ـ أوه، بعدد نقط الماء في اليم، ولكن حذار أن تحاول الهبوط إليها!

ـ ومع ذلك يبدو أن الكل يعرف ما يفعل الكل في هذا البيت!

ـ قلت لك هذا السطح، السطح فقط، فخذ حذرك من العمق!

ولالولي تخاف من مجرد ذكر اسم زيزة:

ـ انس زيزة عندما تكون عندي في هذا البيت، لا تذكرها هنا بأي شكل من الأشكال، ومهما كان الأمر!

لالولي!

هل ذكرت اسمها جهراً؟ سألني عبد الله جبيلو:

ـ مازال ما حكيت لي قصتك مع لالولي؟

لم أرد أن أحكي له تفاصيل السهرة بكاملها، قلت:

ـ هذه شيخة في عين الذياب، لما كنا صغاراً كنا نتعلم فيها تقبيل النساء، ولما كبرنا صرنا نسقط عليها في السر كل ما نكرهه في نسائنا في الجهر، ونطلب لديها جهراً كل ما نطلبه من نسائنا سراً، التقيناها صدفة فدعتنا إلى إكمال السهرة في بيتها... لكني

لم أخرج من هذا البيت طيلة ثلاثة أشهر... انصرف عزيز صحبة منير، تقريباً مع الظهر، ونمت أنا جنبها في السرير، هي استيقظت، مع حلول المغرب، فتزينت وارتدت ملابس العمل ثم عادت إلى عين الذياب لتشتغل، وبقيت أنا نائماً حتى رجعت صباح اليوم التالي، أفطرتني ونامت جنبي ثم أفاقت وذهبت إلى شغلها وعادت فأفطرتني ونامت جنبي...أربعة أيام لا أذكر منها إلا الفطور، واليقظة السريعة بعد النوم الطويل، وخيالات امرأة تخرج وتدخل، وأحياناً تملأ فمي بالقهوة أو بسيجارة ثم تختفي وتعود...

قال جبيلو متنهداً:

ـ وا سكرة هاذي، أخاي، والله، هذي هي السكرة ولا بلاش، حتى أنا توحشت مثل هاذ السكرة...ومثل هاذ النسا، نسا الريح، الجبلية تقدر تطير مثل الطير في الجبل، وتحلق عالية، عالية مثل النسر ولكن...

قاطعته متهكماً:

ـ وشفت، ما تقدرش توجد كل شي في الجبل، أنت مداح الجبل!

استدرك بسرعة:

ـ وأنا عمري ما قلت الجبل فيه كل شي، هو الدنيا كلها، لا، حرام عليك، الجبل لأمثالك أفضل، ولكن مرة يهبط الواحد للسهل ويشم ريحة لبحر، يشوف...النسا، مثلا!

تابعت كأني أكلم نفسي:

ـ هؤلاء نسوة غازيات، مثل السراب، جماله في النظر إليه، وليس في الإمساك به، ولا حتى في الاقتراب منه!

وقال وكأنه مازال يدافع عن نفسه:

ـ لا، ألحبيب خاي، الغاز يشعل أسرع من الخشب، ويدفي أكثر من الفحم، و الغاز نقي!

قلت مختنقاً حتى بدأت أسعل من جديد:

ـ ولكن رائحته لا تحتمل طويلا ويقتل بسرعة، أسرع من الخشب والفحم!

علق، وقد بدا أنه فهم من أي منطلق أتكلم:

ـ في هذي معك الحق، كل الحق، ولكن قل لي: امنين جا هاذ الاسم: لالولي؟

أعاد إلي الابتسامة فجأة، لا الضحك في السر:

ـ لما كانت طفلة كانت تأتي عندنا إلى البيت، تقول لأمي أمي لالة، وتطلب منها الإذن لأساعدها في دروس الفرنسية...ولقد قضيت معها وقتاً طويلاً لأجعلها تميز بين المذكر والمؤنث، بين

المفرد والجمع، إلا أنها لم تستطع استيعاب تلك الفروق، فأسميتها، من باب الدعابة: لالولي. غير أنها أحبت هذا الاسم وصارت تطلب أن تنادى به وصار الكل، عندما يتكلم عنها أو يناديها، يقول: لالولي!

وسكتُّ لأضيف في سري:

ـ هذا الاسم، على عكس زيزة، يوافقها تماماً، مبنى ومعنى!

إلا أنه قد يكون سمعني في سري إذ سألني:

ـ وهذا الاسم، في نظرك، يوافق شيخة؟

فأجبت بلا تردد:

ـ ومن جميع الوجوه!

ـ تكمل لي قصتها فيما بعد، عيني لصقت، أخاي، لا تنس الدوا، قال وهو يقوم ليذهب للنوم!

قلت:

ـ تصبح على خير!

قال:

ـ تنام على لالولي!

وأنا لم أنم لا على ولا مع لالولي، كانت لالولي مثل أختي، بلا أدنى شبهة أو تناقض، على عكس زيزة، التي كانت أمي ولم تكن أمي، وعلى عكس الكُوطة الصغيرة، التي

لم تكن أكثر من جسد مفترس... كانت لالولي خلاصي من المفتش المساعد في المالية وسبب مصالحتي مع أمي، استرجاع أمي من دوائر زيزة، من آخر الحيات اللائي جذبهن شعر والدي!

شطح

لم يتكلم جبيلو كثيراً هذا الصباح. جاء بصينية الفطور وأخذ يقول لي من حين لآخر:

ـ كل!

أو:

ـ زد، شد!

ظننت أنه يعاني من حزن أو ألم ما. غير أنه بمجرد ما شبعنا استعاد لسانه وقال:

ـ شفت وجهك، اليوم؟ طلع ليه الدم من جديد، منور كيف هاذ الصباح الزين. الحمد لله، شفت دوا جبيلو، الدوا الموروث على الوالدين. الحمد لله، كلت وشبعت، هاذ النهار، الحمد

لله، والآن، أخاي، يمكن لك تشعل سيجارة بالعافية، تكمي وشوف آش تم!

وأشعل السبسي، أخذ ينفث دخانه وهو ينظر إلى رأس الجبل من فتحة الباب ويرشف خفيفاً مرة مرة من كأس الشاي، بينما أشعلت سيجارتي وحمدت الله على أني لم أسعل كثيراً هذا الصباح، ثم أفرغ السبسي من رماده وعاد ينظر إلى الجبل من جديد وقال:

ـ تعرف، أخاي المهدي، قبل السفرة اللي عملت للخارج، كنت نجي هنا بالليل، نجلس وحدي بعض المرات حتى للفجر، ومنين تكون القمرة والليل زين تخرج واحد البنت تقطع بالزين والحلاوة، وتبدا ترقص وتغني كيف الملائكة، تقريباً عارية، لابسة غير شي حاجة خفيفة، ترقص على راس الجبل كيف السيف، إذا عمرك شفت السيف في الضو...بسبب هاذ البنت رجعت من الخارج وجلست في لبلاد، تفكرتها البارح، مدة هذي ما شفتها، مدة طويلة هاذي، نظن من النهار اللي تزوجت، وبكيت... تقدر تكون حتى هي تزوجت... ولا ماتت... ولا رحلت للخارج...

صمت طويلا كأنه يبكي، ثم سألني كأنه يهرب من ذاته أو يريد أن يعود إليها من جهة أخرى، من جهتي أنا:

- قل لي، أخاي، لالولي تعرف ترقص وتغني مليح؟

قلت كأنني أنا الذي أهرب هذه المرة:

- صبحنا على الله ، نمسّي ونصبّح على لالولي؟

نظر إلي طويلا يحتج:

- اتفقنا، البارح، تكمل لي قصة لالولي، وأنا والله العظيم عجبتني هاذ لالولي، لالولي تعرف ترقص وتغني مليح؟ قل الله يرضي عليك، أخاي، قلْ!

- لالولي تعرف تغني، رقصها عادي جداً!

- آه، واش تعرف تغني؟

- الشعبي، كل شي، فقط!

- كل شي وفقط، يعني؟

- نخرج، نتمشى، نوض!

ومشينا طويلاً وسط الأشجار، صامتين في الظاهر، ضاجين في الباطن. لاشك أنه كان يفكر في جرح البنت التي كانت ترقص وتغني له على رأس الجبل. أنا كنت أضمد جروح زيزة، والكُوطة الصغيرة، ولالولي... جروح والدي وأمي. استدرجتني لالولي إلى سقف خربة خالتها وأنا عائد بالخبز من الفرن. القمر مكتمل والنجوم حوله قلادات من جواهر. أمرتني بالجلوس على حجر:

ـ تجلس وتنظر!

بدأت ترقص ثم أخذت تتعرى ثم بدأت تريني مفاتنها الواحدة بعد الأخرى وتقول لي:

ـ ينبغي أن تتعلم، أن تعرف كل موقع، ولما يصلح، من جسد المرأة !

ثم اقتربت مني وأخذت تمرر يدي على كل منطقة من جسمها، تسميها، وتقول لماذا تصلح، أو كيف ينبغي التعامل معها عندما أقترب من جسد أية امرأة... حتى ظهرت العجوز خالتها:

ـ المجنونة، ماذا تفعلين بالولد الطيب؟

خفت وحاولت أن أهرب، غير أنها قالت لي:

ـ ابق في مكانك، اصبر وانظر!

وأمسكت بالعجوز من سرتها وأخذت تعريها وهي تصيح:

ـ أنظر، مالا يجنى في وقته.

والعجوز تهدد وتتوعد، وهي لا تتوقف حتى شرعت العجوز في الضحك ونطقت:

ـ شوفي أمك، أنا باقية أصغر منك، ونعرف للرجال أحسن منك، شوفي...

وبدأت من تلقاء نفسها تستعرض مناطق جسدها متباهية بكل منطقة حتى استدارت نحوي وسألتني وأنا في غاية الحرج:

ـ يا لله، ألمهدي، قل الحق، اشكون اللي أحسن، أنا أو لا هي؟

حينئذ هربت. غير أني تعثرت بسرعة وسقطت من يدي الخبزات. ولما وجدتها بصعوبة كبيرة انتهيت إلى النظر إليهما من جديد. كانتا عاريتين، متعانقتين، تقهقهان، ترقصان!

سألتني أمي لماذا أنا مضطرب، فقلت:

ـ تبعني لص، أو حيوان مفترس، لم أتبين هيئته في الظلام!

علقت:

ـ غريب، القمر كأنه الشمس، غادية نبخرك هاذ الليلة!

وتجنبت أن ألتقي بلالولي، وبخالتها، أياماً عديدة، فلقد كان جسداهما مليئين بالشقوق والثقوب التي تشبه المغارات والخرب المسكونة بالحيوانات الخرافية... كلما جاءت لالولي وتقول:

ـ أمي لالة، ابغيت المهدي يعاوني!

أقول لأمي:

ـ أنظري، أنا مريض، قولي لها تبعد مني!

وتعلق الوالدة:

ـ عجب، أسيدي، تمرض غير مالللي تجي هي!

وظلت لالولي تتقرب إلي بالهدايا والكلام الطيب حتى قالت لي:

ـ أنا بغيتك غير تعرف النسا، وما تبقاش تخاف من أي وحدة منهم، كيفي أنا، ما كاينش الرجل اللي بقيت نخاف منو، فهمت؟ أنا ياك أختك، أنت ما عندك أخت، وأنا ما عندي أخ، غيرك أنت، فهمت؟

ـ فهمت، سامحيني!

وجرتني إلى الخربة:

ـ إذا فهمت تعال نفلي لك هاذ الراس لمسخ ونمشطو لك!

وعدنا نلعب معا من جديد، نتبادل القصص والأسرار، أساعدها على ضبط قواعد اللغة الفرنسية، وتساعدني على فهم لغة الحياة التي لم أتقنها في أي يوم من الأيام، كما أتقنتها هي، وزيزة، والكُوطة الصغيرة، وأمي، وربما والدي...وربما جبيلو!

ـ قلت لك نعلمك فن النسا وما قبلت، أُخويي، تعاتبني لالولي، ونحن نفطر في شقتها، ما عمرك تندم، ولا تتعذب، على شي امرا، ولو كانت أمك، أخويي!

هاهو جالس قربي على رأس الجبل يتأمل البحر، والمدن الصغيرة البعيدة، ثم يستدير إلى الجنوب ويتأمل سفح الجبل،

والبهائم، والدواوير، ثم يرهف السمع لينصت إلى أصوات البر، ويعود من جديد إلى الشمال ليستمع إلى ضجيج المدن البعيدة وحركات الماء، لعله ينتقل هكذا دائماً بين الشمال والجنوب، بين أوروبا والمغرب، المغرب الذي يحد، في ذاكرته، بمدينة الرباط!

سألته:

ـ هاه، كيف حال أهل هولندا؟

ابتسم، أو حاول:

ـ هاذ البنت ما عرفت علاش شفتها اليوم مرتين، مرة هناك، جهة تطوان، ومرة هنا، جهة الشاون، تقدر تكون رجعت من السفر أو... لا... طلقت!

أول مرة رأيت الكُوطة الصغيرة ترقص في عرس ابن خالتها، غير الخالة حليمة، خالة لا يعرف لها أصل، ولا شك أنها من مخلوقات زبزة العجيبة دائماً... في البداية رقصت زبزة رقصاً هادئاً حركاته مضبوطة، تسخن قليلا بحركات عادية ثم تشرع في تحريك البطن، كأنها في سرير ضيق، ثم المؤخرة، ثم الصدر، ثم تدخل هذه الأجزاء من الجسم في حركة تناغم، ترد على بعضها البعض وتتكامل، ولكن دائماً في هدوء، أو ضبط، ساحر..وينادى على الكُوطة الصغيرة:

ـ يا لله، يالكُوطة، حمري وجه أمك!

تتمنع قليلا ولكنها، بعد الاستلطاف والدفع والجر، تدخل إلى الحلبة، وتصعد على البستيلية، التي لم تستعملها زيزة إلا للختم، تشرع الكُوطة في تحريك قوامها الذي يختفي وسط الأسمال، يميناً وشمالاً، ثم تبدأ الشطح، تدك البستيلية دكاً، تأخذ أسمالها في التقطع وشعر رأسها في الانتشار، جنون، أو هستريا...ساعة أو أكثر وتسقط أرضاً، تتحلق من حولها النساء مبسملات، وهات يا قطران، ويا بصل!

لم أدر كيف سألت جبيلو:

ـ هاذ البنت، اللي تكلمت لي عليها، البنت اللي ترقص لك على راس الجبل، ترقص أو تشطح؟

استغرب:

ـ ترقص، تشطح، ما الفرق؟

أجبت، وأنا لا أزال واقفاً وسط اللغط، أنظر إلى جسد الكُوطة الصغيرة يشطح:

ـ الرقص فن، مضبوط، لكن الشطح كالجنون، الهستريا مثلا، فيه خروج عن العقل، تغلب فيه حاجة الجسد على القواعد...لهذا، ربما، يقولون: الشطيح والرديح، الرقص يمتع، لكن الشطح يرعب، هل تفهم ما أريد أن أقول؟

تضبب وجهه وهو يحاول أن يخفيه بالنظر جهة الغرب، وتابعت كمن يكلم نفسه أو يؤكد لها فقط:

- الرقص جميل، والشطح مخيف، زيزة ترقص، والكُوطة تشطح دائماً، حتى لالولي تشطح من حين لآخر، لكن رقص زيزة للتستر على الشطح!

وقال كأنه لا يزال يتأمل البنت تشطح في عينيه:

- لا، أخاي، البنت ترقص...علاش بغيتها تشطح؟

حاولت أن أستدرك:

- أنت الذي سألتني إن كانت لالولي ترقص، لالولي تغني، وقد ترقص لتشطح، زيزة دائماً ترقص، وحدها الكُوطة الصغيرة تعرف تشطح!

قال:

- تقدر تكون رجعت، قامت من المرض!

وتركته هناك ورجعت إلى الكُوطة الصغيرة أشاركها الشطح!

هز عينيك

في المساء، حوالي السابعة، جلسنا تحت سقف العتبة ندخن ونتأمل المطر الوابل الذي تساقط بانتظام منذ أكثر من ساعة، كل واحد في دنياه، فالتفت إلي حزيناً ليسألني:

- جاك الجوع؟

لم أحس بالجوع طوال النهار، لكني قلت:

- لحم كرشي لاصق على بعضه، لحمي ياكل لحمي!

لم يضحك، ولا ابتسم، قال:

- نسيت هاذ الصباح نقول لك السيدة زوجتي، رحيمو، فاقت قبل لفجر غضبانة، مقلقة علي وقالت:

- حاسة باللي معانا امرا أخرى في الفراش، كاينة أو لا؟

قلت لها:

- هاذيك غير البنت، ذيك البنت اللي كانت تجي ترقص فوق راس الجبل! قالت لي:

- هاذيك عرفتها، وهاذي وحدة أخرى!

قلت لها:

- ما يمكنش، وباش عرفت هاذيك؟

قالت لي:

- هاذيك هي أنا، أنا اللي كنت نطلع راس الجبل ونرقص لك حتى تزوجتني!

قلت لها:

- خليك من لمزاح، أرحيمو، ولعني الشيطان الرجيم!

قالت لي:

- والله، وقوة الله، هاذيك هي أنا!

وزادت حلفت لي بالنبي، وبالصحابة، وبمولاي عبد السلام... حتى قربت نصدقها، وحقيقة من النهار اللي تزوجت رحيمو ما بانت ذيك البنت حتى للبارح، النسا شمامات...

وسكت، وشرع ينظر إلى المطر من جديد ثم قال:

- الله يرحمنا بكثرة الما، لفطور أنا اللي وجدتو هاذ الصباح، وحتى رحيمو إذا حشمت وطيّبت لعشا ما تقدرش تجيبو لنا في

هاذ الفيضانات... النهار، اليوم، كان زين، وهو يتقلب... تعرف آش ماشي نعمل؟... ابق هنا أنت! الخنزيرة!

وغاب في الوابل...

في شقتها الواسعة بحي بورغون، استيقظت لالولي وتوجهت إلى المطبخ بعينين شبه مغمضتين، تبحث عن القهوة، قلت لها:

ـ ها هي، أمامي!

وجئتها بفنجان بعد أن جلست قبالتي على الكرسي الآخر حول طاولة المطبخ:

ـ مالك فايق على لفجر، قاتل شي واحد؟

ابتسمت لها وهي لا تزال لا تراني إلا كشبح:

ـ الفجر؟ هذه الواحدة صباحا!

حاولت أن تبتسم:

ـ الوحدة، بكري، أخويا، بزاف!

قلت:

ـ قد أكون اكتشفت أني أعيش على وهم!

قالت:

ـ يا فتاح، يا سميع، أستغفر الله، لفجر هذا، شفت الخنزير؟ حتى الخنزير في الغابة عايش على الوهم، مالك باغي تغصب راسك وتغصبني بكري؟

خلينا غير نردو لمزاج واعملها، على خاطرك، على ربي نبكيو عليك في خاطرنا، أخويي، كب، كوب!

كان ذلك يوم اثنين، يوم عطلتها الأسبوعية، وكنت سأغادر شقتها بعد يومين.

شربت قهوتها ودخنت سيجارتين ثم قامت وفتحت النافذة الصغيرة، ونظرت طويلا إلى الخارج:

ـ خير هذا، الحمد لله، الليل كامل وهي تنزل، لبلاد ارتوت!

وجلست من جديد قبالتي وهي تتفحصني وتأملتها بدوري في حياء:

ـ هذا الوجه، الذي كان وردياً وصقيلاً، أصبح مليئاً بالثقوب، والتجاعيد، اصفر قبل أن تدفنه في الكيمياء والصبغة!

قالت:

ـ تبدو قرفان، باغي تخرج تشوف الدنيا، أنا قلت لك، أسيدي، من الأول برافو عليك، واه، جاية لثلاث أشهر ما شفت الضوء!

فكرت من جديد:

ـ باغي نخرج، ولكن فين؟

ازداد وجهها ذبولا:

- تخرج فين ما تبغي، ياك عنك ساروتي؟ سير شوف عزيز صاحبك، عيا ما يطلب فيك تخرج معاه، مسكين، سير لخدمتك، شوف صاحبتك، ما عندك صاحبة؟

فقلت بحيرة كبيرة:

- أنا، في الحقيقة، باغي نمشي نشوف أمي، ولكن آش غادي نقولها، بأي وجه نلقاها؟

اضطربت شفتاها قليلا وهي تقول:

- تشوفها بوجه واحد، وجهك، عندك شي وجه آخر؟ وتقول لها الحقيقة، آش تقدر تقول من غير الحقيقة؟ واشحال يقدك تكذب عليها؟ قولها: هذا وجهي، أميمتي، وهذا ما اعطى الله، قولها ليها وغادي تشوف!

لاحظت يدي اليسرى تضطرب:

- ولفلوس، فلوس الرابيل، اللي كانت منتظرة، نقولها سكرت بهم وعربطت؟

لماذا كسا وجهها الغضب؟ قالت:

- أسيدي، فلوسك كاينين، كاينين بالسنتيم، ذيك الليلة، ماللي تلفت السباط، مرة ثانية، جمعتم أنا وعزيز وخزنتهم في ساكي، راهم في الماريو، فين كتنعس، ناقصهم غير حقك في " الخزينة العامة"، حقك في مصروف ديك الليلة مع أصحابك!

ـ آه، بالصح؟

كنت في حجرها أبكي وهي تغني:

ـ العظمة ما منوش غير لفلوس اللي ما عندوش!

ثم:

ـ ما هو جاري ما قريب لدواري!

ثم:

ـ هز عينيك تشوف لعنب في الزيتونة قالت لك لالة ميمونة!

وأنا في الطريق إلى بيت أمي، بعرصة القاضي، توقفت عند تل يشرف على تلك المدينة الصغيرة:

ـ هنا رأيت والدي، ولأول مرة، يلعب مع ثعبان!

تين التعابين

قال منير الحكيم، وهو يتهيأ، في السر التام، لينقطع عنا إلى رفيقته التي تزوجها حامداً شاكراً الله، الذي هداه إليها مرتاحاً، آمناً، سعيداً، وهداها إليه، عاشقة، رحيمة، كريمة:

- نحن نعاشر المراهقين، يا عزيز، هاذ السي المهدي ما زال طفل، الله يرد بيه!

فقلت لمنير مباهياً، متحدياً:

- لا، ليس والدي مجنوناً ولا عاقلاً، لكنه ممتد كهذا المدى، وقد يكون فقط في حاجة إلى أن يجد له علواً، نهاية ترتفع بما فيه الكفاية، عن السهول، ويمكن أن ترى من علوها كل الهضاب، وقد يكون كل هذا مجرد حنين. أما خوفي عليه فبسبب عمره: لقد أتم الخامسة والستين. وفي مثل هذه السن لا

يقدر المرء على تسلق كل الجبال بأمان ولا على الارتفاع دائماً نحو القمم: قد تفاجئه سكتة قلبية، يخونه الجسد، أو يسهو فقط، تغدر به الروح نفسها. ذهب وبقيت أمي. وسيعود إليها سعيداً بلقياها تسبقه الابتسامة:

ـ كنت في "الجبل!".

دائماً يذهب من "سهل"، أو "هضبة"، ليعود من "جبل"!

وسألني عزيز:

ـ أين يوجد هذا الجبل؟

تابعت، وأنا أفكر في أن أوجه الكلام إلى لالولي، لو كانت معنا:

ـ كانت لأمي أربع رحلات في السنة، حسب الفصول الأربعة، وكلما عادت، بعد رحلتي الصيف والشتاء، من عند بعض الأهل تقطع " وادي العريشة". وكان هذا الوادي، الذي تحيط بجهتيه أنواع كثيرة من أشجار الفواكه، خاصة تينه الشهير الذي ليس للذته مثيل، يجف في الصيف فتكثر فيه الأفاعي، لكنه لما يمتلئ في الشتاء يفيض على كل ما حوله. شتاء، تحكي لنا أمي عن فيضان الوادي، عن جرفه للبهائم والناس والمساكن، عن عزلة السكان أسابيع طويلة، فنتعجب من إصرارهم على الإقامة هناك ونستغرب. وأما صيفاً فإنها تحكي لنا

قصصاً رهيبة عن العقارب والثعابين والأفاعي، خاصة عن تلك الأفعى التي تقوقئ مثل دجاجة، قبل أن تطير لتضرب في العنق أو الرقبة، وتسبح في ما قد يتبقى من ماء في الوادي لتغتال الغر من الأولاد أو الغافل من الكبار.

تدخل منير الحكيم خائفاً:

- الولد سكر، والله الحكيم!

لكني تصرفت كأنه لم يقل شيئاً، كأن الحنين إلى والدي قد لبسني فجأة:

- تكون لدينا خوف عميق من كل الحيوانات الزاحفة، ولو كانت من نوع "البعوضة البوالة"، وكنا نتبادل "أحلام الزواحف"، نبتدئ بها اليوم أو نختتمه، ولا ينتعل أحدنا أو يطمئن إلى ملابسه قبل أن يفتشها، وبحذر كبير، تفتيشاً دقيقاً. ولقد عاشت أمي في صغرها بدورها هذا الرعب فنقلته إلينا كما يبدو من حكايات جدتي عن " وادي العريشة". حتى شتاء، وعادة قبل أن تسافر، كانت تحكي لنا قصصاً من نوع قصة تلك المرأة التي نامت القيلولة تحت تينة، تسمى "تينة الخلوى"، فتسللت إلى رحمها واحدة من تلك الأفاعي، التي تقوقئ، لتمكث فيه سنوات عديدة، وكانت الأفعى تطل من حين إلى آخر من بين فخذيها، ربيعاً، ثم تعود لتختفي في الرحم الذي لم

تغادره نهائياً إلا بعد أن أصبحت المرأة تقوقئ بدورها، بينما كانت قبل ذلك تخرج منه صيفاً لتعود إليه مع نهاية الخريف، كأنها تعود، طبيعياً، إلى جحرها!

لم يكف منير الحكيم عن الضحك هذه المرة:

- أفعى تقوقئ، يالطيف!

قلت وكأنه يحتاج إلى دليل:

- والله الكريم، أمنير!

أما أبي فإنه كان يبتسم وهو يستمع معنا إلى هذه القصص، وإذا سألناه عنها اكتفى بالابتسامة.

قال منير:

- رجل ذكي، لا يصدق كل ما يحكى ويقال كالطفل!

كنت قد انتقلت كلياً إلى بلدتنا، إلى طفولتي:

- وهاهو يبستم للثعبان الأصفر المنقط بالأخضر الذي يلعب أمامه بلسانه الرفيع ويزداد ارتفاعه في انتصابه كأنه يهدده، يتحداه، وهو لا يزال يبتسم. وفجأة يخلع الثعبان "رداءه" الأبيض الشفاف ثم ينصرف. يلتقط والدي ذلك الرداء ويتأمله طويلا ثم يعلقه على غصن من أغصان تلك التينة، التي كانت تسمى " تينة الثعابين"، كل من يأكل من تينها يصاب بنوع عجيب من الجنون، وينصرف والدي، يقطع الكرم الأخضر

الفسيح ثم يغيب في حقل من حقول القمح الصفراء، كأنه ذاهب نحو ذلك الجبل العجيب!

وصمتّ قليلاً أراقب أبي ثم أتابع:

- أين يوجد هذا الجبل؟ لابد أنه يوجد، أكيد أنه يوجد، ووالدي يذهب إليه لينشر هذه الابتسامة على كل الهضاب والسهول، ليضيئها كما يضيئها قمر، قمر مكتمل.

لم أعد أسمع تعليقات منير ومداعباته:

- هذه الابتسامة التي تأسر الثعبان، وتجعله يخلع رداءه الأبيض الشفاف، تحت بصر والدي، بصره البعيد والعميق، بصره الذي ينظر ولا ينظر، كأنه لا يبصر شيئاً في الخارج البعيد أو القريب، وتأسر النساء من طرف والدي، تجعل والدتي ترى الثعابين والأفاعي والعقارب في سفرها، ترينا الزواحف المرعبة في كل دابة، قد تكون هي التي تجعلنا نصدق حكايات الوالدة ونكذب أعيننا، وهي ترى الوالد يبتسم لرؤيتها أو سماع القصص حولها: ما أطول ليالي الرعب هذه وأشد حلكتها، ليل نهار، في الوحدة وفي الألفة... أو في أول العمر وآخره؟ لكن والدي، مقارنة مع الوالدة، لم يكن يرى شيئاً، كانت أمي وحدها التي ترى وتري، ترينا. وإلا ماذا تستطيع أن تشاهد في تلك الابتسامة، وفي تلك العين التي تنظر وهي مسدودة، سوى العمى، سوى جبل لا

يعرفه أحد؟ وفي قوله الملغز لأمي: "الشمس تجلي الظلام فتمسكي بالشمس"؟ هل كان يقصد الابتسامة؟ الابتسامة شمس، كيف والزواحف المرعبة تنشطها حرارتها؟ ولماذا ظل متمسكا ب" وادي الوالدة السحيق"، وظلت هي تتمسك ب" الظلام الدامس" في عينيه؟ هل كانت مجرد لعبة فصول في عينيهما، بينهما؟ ونحن، كيف نفهم التقاء ليلها الطويل بنهاره الدائم، صيفه بشتائها؟ كان صيفه يجعله غائباً على الدوام وشتاؤها يجعلها مطلقة الحضور، فكيف لا نولد، ونستمر في الحياة، منهارين، مكتئبين، متعبين؟ كيف لا ننظر بغير عين الأم؟ لكن ابتسامته مع ذلك، وبالرغم من كل شيء، يأتي من العقل أو القلب، من الليل أو النهار، تظل ملغزة، معجزة، فاتنة ومرعبة: كانت أمي تسميه القمر، ساخرة. وهو لم يكن قمراً فقط لجماله، وملاحته، لصفاء بصيرته، وبياض قلبه، وعذوبة لسانه، ولكن كذلك لكثرة اختفائه وظهوره، وأسره لقلوب النساء، أجمل النساء وأشدهن تمنعاً عن بقية الرجال.

كان يختفي أياماً، أو أسابيع، وأحياناً شهوراً، قبل أن يظهر من جديد تسبقه ابتسامته: هل كان يحن حقاً إلى الامتداد المنتظم؟ هل كان يسأم من "الجبل" كما يتعبه طول المكوث في المتد؟ ازدادت مدة، ووثيرة، اختفائه مع تقدمه في السن،

ونحن ننتظر اليوم الذي سيدرك فيه أنه شاخ، اليوم الذي سيقول فيه لأمي:

- وهن العظم مني، فسامحيني، يا رفيقة عمري، واتركيني أمت في فراشك، دعي التين يأكل الثعابين؟

هل كنا نريده، ككل الأولاد في هذا العالم، أن يموت في صورة بطل، بطل تعب من العلو يترجل ليموت آمناً في حضن هضبة أو قلب سهل؟ لِمَ يكثر من الغياب، من الطلوع والنزول وهو في مثل هذا العمر؟ وأثناء ذلك كله ترتفع حدة، ومدة، قصص " الحيوانات الزاحفة" في البيت، لا تكف أمي عن ترديد حكاية المرأة التي تقوقئ، التي تسميها "الأفعى"، وقد تخطيء فتسميها "الدجاجة". هل تستطيع الوالدة أن تشغل بالها، يوماً ما، بغير الكوارث وقصص" الزواحف" وحاجات الأولاد؟ هل يمهلها الامتداد كما نريد أن يمهله العلو؟

كانت في حينا امرأة اجتمعت فيها ثلاث صفات استثنائية: البياض، وطول الشعر، والغنى. لقد كانت كل نسائنا بألوان التربة أو أنواع القمح، في البلد، إلا "البيضا". كان بياض بشرتها كالحديد المشتعل في نار عظيمة، فسميت "البيضا". وكانت ضفائر" البيضا" تنزل كثعبانين أسودين، خيين، متعاركين،

حتى العقبين. وأما غناها، وكذلك جاهها، فلا يستطيع أن يحلم بمثله أحد، ولو كان "القايد" نفسه.

كانت "البيضا" تخيف وتفتن الرجال والنساء معاً: امرأة رهيبة حقاً. وذات صباح، وأنا أبحث عن أترابي، وجدتها قرب "السانية"، تحت تينة ضخمة قوية، وهي تبكي، ترتعد وتتصبب عرقاً كالبخار، بينما "محمد"، والدي، ينظر إليها وهو يبتسم. اختفيت وراء سور "السانية"، حيث الحمار المعصب العينين يدور بالدلاء، وأخذت أسترق السمع، تقول:

- "أكتب لك كل ما أملك، أجعلك أغنى، وأقوى، رجل في الدنيا، أهم من سليمان ذاته، تزوجني، تزوجني، واحتفظ بزوجتك"!

ووصلتني"تزوجني" مخيفة، منذرة، محذرة، صاعقة، فخرجت من مخبئي، وتوجهت نحوهما. كان ممسكاً بيديها يشبعهما تقبيلاً، وهو يبتسم، وهي لا تزال تبكي، تتصبب عرقاً وترتجف. وأحس بي فحرر يديها وهو يقول:

- "ملاك الحب يحب أن يلهو بالفصول"!

ثم انصرف مسرعاً كالبرق وتركها تبكي، تزداد عرقاً، وترتعد. فتبعته حتى غاب في حقل قمح أخضر شاسع وبدأ الوابل يهطل.

كنا في يناير وكانت أمي تتهيأ لرحلة الشتاء. لكنه اختفى، مرة أخرى، مدة تزيد عن الشهر فأكثرت أمي من ضرب الدجاج، والحديث عن المسبتات من الزواحف، وجاءها دم الحيض قوياً، أسود، طويلاً. لقد كنا نشاهده يفيض من حين لآخر ليكسو ملابسها وقدميها. كنا خائفين عليها. وكنت خائفاً منه، من غضبه: لماذا اقتحمت خلوته مع "البيضا"؟ هل جننت من الخوف على أمي؟ كنت لا أكف عن لوم نفسي" الأمارة". لكنه لما عاد إلى البيت مع نهاية فبراير تسبقه الابتسامة خلوت به وقلت له:

- " لم أخبر أمي بشي!"

فاكتفى بالابتسامة فازداد شعوري بالذنب وصار هو أكثر إلغازاً. انقطعت العادة الشهرية عن أمي وغابت عنا، في رحلتها الشتوية، قرابة أسبوع. ولما عادت أكثرت من إطعام الدجاج والحديث عن كوارث" وادي عريشة".

حينئذ أكثرت "البيضا" كذلك من زيارة أمي، وأكثرت من مخاطبتها ب"أختي"، فلم نعد نرى الابتسامة على وجه "محمد". لقد شرع يكثر من النظر إلى الجبل النائي، أصبح يسمع أكثر مما يرى، ولا يمكث في البيت إلا قليلا، غالباً لينام فقط، قبل أن يرحل من جديد نحو جبله...

نسيت صاحبي تماماً، جبيلو، ولما انتهيت من هذا الشطح شعرت بأني لم أشبع منه، وأنه على العكس أجج هذا الشطح و مواجعي، زاد مرضي:

- أبي لم يجب قط عن أسئلتي، ولا أمي كانت تجيب، ولا زيزة، ولا الكوطة، إلا الشيخة لالولي فقد كانت تملك أجوبة، لكن بلا أسئلة!

ولكن أتكون هذه الذكريات، وهذا "الجبل" بالذات، ما دفعني إلى أن أطلب من عزيز أن يأخذني إلى جبيلو؟

- عزيز، قلت لي عندك واحد الصاحب فالجبل، ناحية الشاون؟

وأجاب عزيز الكريم، الخدوم دائماً:

- عندي، وقت ما تحب!

التين والزيتون

شاخت أمي بسرعة، هذه السنوات الأخيرة، ولكن كم رقت، وكم صفت، وتعالت عن الصغائر، بالرغم من أنها لم تعد تؤلف الحكايات:

ـ لكل وقت، ولكل عمر، جماله، يقول جبيلو!

وأنا عائد إلى المدينة، محملا بدعوات أمي وبركاتها، مررت بالقرب من "دار العساسة"، تلك التي لما ماتت، بعدم موت أبي بشهور قليلة، قالت أمي:

ـ أذكرها بخير، إنها جدتك، أم أبيك!

فاكتملت الفاجعة وضاق بها الصدر!

وتسألني لالولي:

ـ هل صحيح ما حكي عن أبيك من علاقة غريبة مع العساسة؟

ـ والدي، لو تعلمين، لم يكن يجيب عن أي شيء، كان يبتسم فقط، كان هو السؤال الكبير: شاعر حقاً، أو أحمق، أو مجذوب، بهلول؟

ما زلت أذكر هذه الواقعة، وأذكر واقعة "الثور المجنح"، كما لو أنها تجري الآن أمام عيني.

ـ تذكرها، و"كما لو أنها تجري الآن أمام" عينيك؟ يستغرب جبيلو، لست الآن في الأربعين إذن، كبير مع راسك، أخاي!

قلت:

ـ لا، بعض الأشياء تحكى لنا فقط فنراها كمن عاشها بالفعل أو أفضل. لهذا نحكيها كما لو كنا رواتها المباشرين بالفعل!

ـ إيه، أنت تصدق راسك، وأنا تكذبني في حكاية بلاد الغول؟ حتى أنا غير سمعتها وعجبتني، قلت لنفسي: تصلح لي!

وتابعت:

ـ ففي الجهة الغربية من القرية، وعلى بعد أقل من مائتي متر، فوق تل صغير، منبسط القمة، توجد " دار العساسة": في

خيمة سوداء، تحت زيتونة، تحيط بها ثلاث تينات، تسكن امرأة عجوز مع قطتين، وقط، وكلبتين، وكلب.

- سحارة كبيرة، باينة، يعلق جبيلو!

فأشعر بالغضب نحوه:

- استح، هذه جدتي، والدة أبي!

وأستدرك:

- إن لم تكن زيزته!

ثم أستمر في ما يروى عن أبي من العجب: لم أعرف أبدا أبشع من هذه الحيوانات، حيوانات العساسة، ولا أقذر منها! أما الأشجار الأربع فقد اتخذت أشكالا خرافية حتى لتبدو مليئة بأشباح مخلوقات ممسوخة: التينات تنتشر أغصانها بعيداً عن جذورها العارية، التي تشبه القبور، والزيتونة عالية، وكثيفة، بينما جذورها، العارية بدورها، تمتد مثل الكهف!

- وترفض القول إنها تعاشر الجن، أو من فصيلتهم، الجنية، يقاطع جبيلو من غير أن أهتم به...

- لا يوجد أعلى من هذه الزيتونة في الناحية كلها، ولا أكثف منها، إلى درجة أن مدينتنا الصغيرة قد غلب عليها اسم " قرية الزيتونة"، إلى جانب اسم "دار العساسة"، قبل أن تصبح " عرصة القاضي". ويأوي إلى هذه الزيتونة ما لا يحصى من

الطيور، وتفضل العصافير التينات، حيث يسمع ضجيجها، قبيل المغرب وبعيده، على بعد كيلومترات من القرية....

تحظى كل هذه الطيور، وكذلك العصافير، باحترام الجميع وتقديرهم، ويقدم إليها الناس، في مناسبات معينة، الماء والطعام، لاعتقادهم أنها أرواح موتاهم تأتي لتبيت عندهم في أمان، أو أرواح أقارب ماتوا بعيداً عن " دار العساسة"، لكنها تجيء لزيارتهم وتفقد أحوالهم.

أما المرأة العجوز فهي غريبة، في الأصل، عن أهل " الزيتونة"، كما قلت لك، ولم نعرف لها بعض النسب إلا بعد موتها، كما سبق. لقد جاءت، منذ سنوات عديدة، على ما هي الآن: عجوز. نصبت خيمتها هناك، ليلا، ولم يستطع أحد أن يسأل عن أمرها، إلا في السر، أو يقول لها أف، في العلن. اكتفى الناس بالقول، خاصة لنا نحن الصغار: أرسلت ك"عساسة" لحراسة الطير!

ولا يذهب إليها أحد بدون سبب: كل من يذهب إلى هناك يذهب حاملاً هدية، أو سؤالا عن قريب ميت، إلا "محمد" فإنه قد يزورها بلا" سبب"، وقد تسأل عنه هي أو تبعث من يأتي به إليها. ولا يتعدى السؤال:

ـ هل عاد من الجبل؟

أو:

ـ هل عاد من جديد إلى الجبل؟

كما لا يتعدى الطلب:

ـ أخبروه أني أريده.

وبينما هو في الجبل جاءت أفعى، في لون الحمري ووزن الخروف، وسكنت أعلى الزيتونة. في اليوم الأول ابتلعت الأفعى لقلقاً ذكراً ثم ابتلعت أنثاه في اليوم الثاني، فثارت ثائرة العجوز وأخذت تطوف في القرية:

ـ جيبوا لي محمد، إنه في مغارة الجبل.

لكن لا أحد عرف كيف، ولا من أين، يأتي بمحمد، فافترست الأفعى لقلقاً ذكراً آخر في اليوم الثالث. وطافت العجوز من جديد بالقرية:

ـ شرفكم يبتلع، فهاتوني بمحمد.

ولم يبق هناك لقلق بعد أن افترست الأفعى الأنثى الباقية. صعدت العجوز فوق أعلى دار وصاحت بعد آذان الفجر:

ـ وامحمد، ارجع!

فرجع محمد مع الضحى!

ـ وتصدق كل هذا، يسألني جهيلو ساخراً؟

ـ أصدق كل ما يجري في نفوس الناس، وكل ما يجري في نفسي، الناس حكوه لي وصدقته نفسي، أجبت ثائراً!

فلما رأى حالي بدا كأنه رق لي:

ـ لا، أنا خفت فقط أن يكون كل هذا الأمر مجرد أسطورة، فتابع!

فازداد غضبي:

ـ هو بالفعل مجرد أسطورة، لكنها أسطورة أبي، يا أخي الكريم!

ـ ماعليهش، معذرة، تابع!

قلت:

ـ أدخلته الخيمة والناس قد تجمهروا، في لغط، ينتظرون. وخرج محمد من الخيمة مكسواً بأوراق التين، وبدأ يتسلق الزيتونة حتى غاب عن النظر، بينما الناس تكتم أنفاسها حينا أو تلغط حينا آخر. وبعد دقائق، كانت أطول من عمر معمر، ظهر محمد نازلا من الزيتونة يسبقه ذنب الأفعى الضخم المترنح قبل أن يظهر كل جسدها الذي يقبض عليه محمد من الرقبة!

لم ير أحد أفعى ضخمة كتلك بالرغم مما رأوه في حياتهم من أفاع، ومما سمعناه من حكايات عن الأفاعي، أتم بترديدها

بعض الشيوخ أعمارهم، ولغط بها الأطفال وكبروا. لا، أبداً. وحين نشر جسدها أمام أعينهم، وهو لا يزال يمسك برقبتها، هللوا. وقالت العجوز وهي تقترب من جسد الأفعى وترتعد:

ـ إبليس، لعنة الله عليه وقبحه!

ثم قالت لمحمد:

ـ أمسك به جيداً!

ومدت نحو الأفعى سكيناً تبرق فصلت بها الرأس عن بقية الجسد. آنئذ ترنح الرأس قليلا، وكذلك الذنب، ثم هدأ. غير أن بقية الجسد لم تهدأ فقالت العجوز:

ـ هكذا اللعين، والزاني والزانية، وآكل الحرام، وقاطع صلة الرحم، يتعذب!

وتذكرت أني كلما خرجت زيزة من فراشي أحلم بهذه الأفعى اللعينة، فتوقفت عن سرد حكاية العساسة ووالدي.

قال جبيلو:

ـ كمل!

ضحكت:

ـ أنت لا تصدق، فلمن أكمل؟

ابتسم ابتسامة غريبة:

ـ بدأت أصدق، والله الكريم!

يسخر من أسطورة والدي، أنا نفسي أجد فيها شيئاً لا يصدق، لكنها أسطورة والدي! من منكم لم يؤلف، أو يسمع، يحلم فقط بأن يؤلف، فقط بأن يسمع حكاية كهذه عن أبيه، يكون فيها الأب بطلا خرافياً وتكون الأم قديسة؟

كانت لالولي، التي لا تستطيع أن تؤلف مثل هذه الحكاية عن أبيها، والتي ضيعها افتقارها إلى مثل هذه الحكاية، قد أعادتني إلى تتمتها أكثر من مرة، كانت منبهرة كطفلة، تلك الظهيرة، تستعجل:

ـ كمل، أخويا، الله يسترك، كمل لي!

أو تعيد:

ـ عاودْ من الأول، يالله، اعمل لي الخاطر، يالله!

أو تسأل عن تفصيل من تفاصيلها، أو تطلب أن أضيف أو أحذف...كأنها تريد أن تتبناها!

قلت لها:

ـ أين وصلت؟ آه، وهمت العجوز بالانصراف ثم دارت حول نفسها وأخذت تنظر إلى محمد قبل أن تأمره وهي تبتسم:

ـ اتبعني!

فنظر إلى نفسه وتبعها وهو يبتسم بدوره. ولا أحد غيرهما لاحظ أن محمداً كان عارياً تماماً. لقد سقطت عن جسده كل

أوراق التين بينما الناس مهتمون بحركات جسد الأفعى التي تحتضر.

في الخيمة وهو يلبس ثيابه سألها:

- من هو الزاني، ومن هي الزانية؟

قالت:

- كل من يضاجع من غير حب، وفي السر، لا في العلن، كأنه يسرق!

وانتهى من لبس كسوته فعاد يسألها:

- وفيم يشبه الزاني الشيطان كي يعذب مثله؟

قالت وهي تقدم إليه ملعقة عسل:

- يكره نفسه مثله ويحتقرها، متعجرف!

وتسأل لالولي:

- حتى لو كان يعملها بسبب الحاجة وحماية النفس؟

قلت حاسماً كأني المفتي:

- ولو... لا، غير الحب يعني لا!

- تابع، أخويي، كمل!

قلت:

- وخرج أبي من خيمتها قاصداً بيته وهو يبتسم. وأما أنا، يا لالولي، فإني كلما ذكرت جدتي، أو تذكرت زيزة، أو الكُوطة،

أو زازة عدوة الشعر، أو لالة مولاتي زوجتي، أشعر بلحمي يشوى، كأني في جهنم:

ـ وعلاش، أخويي، مالك، آش عملت؟

ـ آش عملت؟ لا أعرف إن كانت الرغبة حباً!

ـ واشنو هو الحب بلا رغبة؟ الرغبة هي الحب، انسى، انسى عليك شوية الهم، راك مازال صغير، وما فاهم حتى حاجة فالدنيا، أخويي، الدنيا قصص مخلطة، ما هياش قصة وحدة باينة و مسلسلة، أخويي، يالله كمل لي القصة!

قلت:

ـ لما وصل محمد إلى البيت وجد الوالدة على أحسن حال وسمعناهما، ليالي طويلة، يقهقهان فيغيب عنا النوم أو نوقظ في عزه. ثم قبلت أمي أن تزورها العجوز، أخيراً!

شرعت هذه في التردد علينا أكثر من مرة في الأسبوع. وذات يوم دخلت فوجدت "البيضا" عندنا في البيت، فانصرفت " البيضا" بعد الكثير من طقوس المجاملة. فلما حطت الوالدة صينية الشاي بينها وبين العجوز قالت أمي، وهي تصب الشاي وتتعمد صبه ببطء:

ـ أنا بدوري يجب أن أقتل هذه الأفعى، "البيضا"!

والتقى نظراهما طويلا وهي تمد كأس الشاي إلى العجوز. ثم تأملت العجوز الكأس مدة أطول، كأنها تقرأه، قبل أن ترشف منه رشفة كبيرة وتقول:

ـ بعض الأفاعي ليست حاملة لسم قاتل، وبعضها قد يموت بسمه، ومحمد، كما تعلمين، لا يخاف من السم لأنه لا يقتله، لأنه يعرف كيف يلفظه من غير أن يصل إلى قلبه!

فانفرجت أسارير أمي من جديد، واستمرت القهقهات الطويلة بينها وبين الوالد ليلا، واختفت الزواحف من بيتنا طويلا إلى أن حدثت واقعة "الثور المجنح".

قالت لالولي:

ـ هاذ الشي كله وقع قبل ما يجيبني بويا عنكم؟

ـ غير بشهور، أو أعوام، قليلة، وحتى أنا كنت مازال صغير وربما مازال ما تولدت!

ـ كيفاش، استغربت لالولي؟

وقبل أن أجيب قالت:

ـ كمل، كمل!

فقلت:

ـ تملك "البيضا" الكثير من الثيران، إلى جانب الكثير من الأبقار والأغنام والدجاج والبيبي.

ـ البيضا عاقلة عليها، بنت لحرام، تبغي غير الفن فالرجال، كمل، كمل!

قلت:

ـ وقد جن أحد هذه الثيران، فصار يخرج النار من خياشيمه، وينفث الدخان، وإذا جرى يبدو كأنه يطير، فسمي "الثور المجنح". وأضرب هذا الثور عن الدخول إلى الزريبة ومعاشرة بقية الثيران والأبقار. وصار يهاجم الرجال والنساء والأطفال. وما اقترب منه أحد، أو غفل، إلا وكان الموت من نصيبه.

لقد عجز عن القبض عليه أقوى الرجال مجتمعين. وحدث أن أصاب ممرضة فرنسية، كانت صحبة مجموعة من النساء المغربيات، بجروح بليغة، وقتل ثلاثاً من أولاء النسوة. فأمر" المخزن" بقتل الثور. ولكن " القايد" قال:

ـ يجب القبض عليه، حياً أو ميتاً، ومحاكمة صاحبته في شخص هذا الثور، لا بد من محاكمة الثور!

فالتجأ الناس من جديد إلى العجوز فقالت لهم:

ـ آتوني بمحمد!

وجيء بمحمد فدخل خيمتها وخرج منها وقد استبدل ثيابه بالحبال الغليظة. وخرج يبحث عن "الثور المجنح"، والناس

يتبعونه من بعيد، فوجد الثور يشرب من "عين الكرموس"، فقال له :

- تشرب على مهلك، بعدها تقتلني أو أقبض عليك!

ونظر إليه الثور هادئاً وعاد يكمل شربه حتى ورد ما فيه الكفاية.

آنئذ أخذ يتفحص الرجل المكسو بالحبال الغليظة، ثم تحرك نحوه ثم توقف يتفحصه من جديد، ثم أخذ يحفر الأرض بقائمتيه الأماميتين ويثير الغبار من حوله، ثم شرع ينفث الدخان من أنفه، ثم انطلق كنار حمراء مهاجماً محمد. لم يستطع أحد أن يرى كيف أمسك محمد بالثور من قرنيه والثور يجري كالبرق ثم يتوقف ويدور حول نفسه، ثم ينطلق من جديد جارياً كالبرق، ثم يتوقف ويضرب الهواء بقائمتيه الخلفيتين، ثم يتوقف نهائيا عن الحركة!

- بوك، الله يرحمو، كان قوي، ثور حتى هو، ثور و زين، كمل، عفاك!

قلت :

- وإذ فتح الناس أعينهم أخيراً وجدوا الثور مكبلاً بالحبال، ومحمد لا يزال ممسكاً بقرنيه ثم رأوا محمداً يجري بعيداً عن الثور والحبل يطول بينه وبينه، فعاد إليهم الفزع العظيم ثم

شاهدوا الثور يسقط أرضاً بعد أن شد محمد الحبل إلى جذع زيتونة ضخمة، ثم شاهدوا الثور يقتلع جذع الزيتونة ولكنه غير قادر على النهوض. حينئذ قالت العجوز:

ـ هيا، أيها الرجال، اقبضوا على الثور الآن!

ولم يعرف أحد، وسط ذلك الهرج والفزع، من أين خرجت الفرنسية المرضة التي ارتمت على جسد محمد العاري تماماً وأخذت تشبعه تقبيلا:

ـ مسكينة، غريبة وبرانية حتى هي، قالت لالولي!

وتابعت:

ـ كنا في بداية الربيع، وكانت المراعي قد بدأت تزهر، والحقول قد أخذت تثمر، بالرغم من استمرار البرودة، قارصة أحياناً كثيرة، واستمرار هطول المطر، مفاجئاً من حين لآخر. آنئذ بدأ الناس يشهدون، وهم يضحكون، الممرضة الفرنسية، في ممرات الحقول والمراعي، تخرج لنزهات طويلة متأبطة إحدى يدي محمد، وكل واحد منهما يسير باسماً، مزهواً برفقة صاحبه، لا يكف عن مداعبته والحديث إليه. وخلع محمد الجلباب والبرنوس المغربين ولبس الكوستيم، بينما تخلت " هيني" الفرنسية عن البذلة الأوروبية لصالح القفطان المغربي:

- الحب وعلاش قادر، أخويي ا

قلت:

- حينئذ ظهرت في حكايات الوالدة أفعى جديدة ذات هيئة هي مزيج من الثور والثعبان. قالت العجوز لأمي:

- اطمئني، إن ما بينهما هو ما بين الملائكة، لا أقل ولا أكثر! وقالت " البيضا" لأمي:

- لا تخافي هذه المرة، فالفرنسية عائدة ولا بد إلى بلدها، ذات يوم، ومحمد ليس أكثر من أمير شاعر، إني أعرفه، ولم تخبريه فيما خبرته، وكما خبرته، أنا أختك!

- ختها؟ كيف ما زيزة أمك انت، علقت لالولي ا

ثم أضافت:

- كمل، أخويي الله ينورك ويرد بك!

قلت مندمجاً تماماً مع طفلي، عفواً مع والدي:

- لكن الأفعى الجديدة كانت قد تسللت إلى رحم أمي وأخّرت دورة الحيض مرة أخرى. فقالت العجوز لل"بيضا" هامسة:

- كيف أخرج الرتيلاء من رأس ابني؟ وكيف أخلص بطن زوجته من الأفعى؟

فردت " البيضا" يائسة:

ـ انتظري اكتمال الربيع، انتظري الثلاثة أيام التي يحتجب خلالها القمر في آخر هذا الفصل!

اختفى محمد بالفعل، مع حلول نهاية الفصل، فصادف ذلك عودة الدورة الشهرية للوالدة من جديد. لكن بؤس "هيني" لم يرحمها، فمرضت، وذبلت فجأة. جاءت إلى البيت مراراً تسأل عنه. وفي كل مرة ترفض أمي أن تراها إلى أن صادفت وجود " البيضا" عندنا. سألتها "البيضا"، وهي تطلب منها أن تجفف دموعها:

ـ ماذا فعلت له؟

ردت الفرنسية:

ـ قلت له إني أحبه، فقط، لا غير!

قالت "البيضا":

ـ هذا أمر لا يخيفه، بل يسعده، فماذا طلبت منه غير هذا؟

فوجئت الفرنسية:

ـ طلبت منه ما تطلب امرأة من رجل تحبه،...!

قالت " البيضا" مقاطعة:

ـ كفى، كفى، هذا ما يخيفه، هذا بالضبط ما يدفعه إلى الهرب وكتابة الشعر!

وظلت " هيني" تحملق، مستغربة، في عين "البيضا" حتى قالت لها :

- اطمئني، سيعود، في موعد الحصاد!

عاد والدي، بطبيعة الحال، إلى القرية مع حلول موسم الحصاد. وأنستني عودته الأسئلة التي بقيت أكررها طيلة غيابه : لماذا يحب محمد النساء إلى هذه الدرجة؟ وماذا يخيفه في الحب، في المرأة حين تحبه؟ ولماذا تصف "البيضا" والدي ب "الأمير الشاعر"؟ هل هو شاعر حقاً؟ وأمير؟ لذلك يأسر النساء، والأفاعي، والثيران؟

اكتفت " البيضا"، كإجابة عن هذه الأسئلة، بإحالتي على أمي :

- لك أم، يا بني، تستطيع، وينبغي لها، أن تجيبك عن هذه الأسئلة، أنا لست أكثر من صديقة لأمك، وربما لأبيك!

وغضبت أمي حين طرحت عليها تلك الأسئلة :

- شاعر؟ انس هذه الأسئلة، ولا تذكر على لسانك قط كلمة : شاعر؟ بوك؟ شاعر، قال لك الولد، اغرب عن وجهي، الله يلعنك ويلعن الشعر!

وقالت لي العجوز:

ـ ولدي المسكين، محمد أباك، في رأسه عنكبوت، فارحموه، ولا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم!

هل أستطيع أن أطرد هذا العنكبوت من رأس محمد؟ ما أكثر أوهام الأولاد بخصوص آبائهم!

لكني كنت سعيداً وأنا أسمع الناس، مغاربة وفرنسيين، ينشدون قصيدة "الثور المجنح"، كما نظمها والدي في ذاك " الجبل"، حيث يشبه الثور النسر، ويتناقلون روايتها، كما صاغتها أمي في إحدى سفراتها، حيث يصبح الثور امرأة، ثم يصير أفعى تحرس أشجار التين!

كانت لالولي تبكي:

ـ مالك، السعدية، مالك تبكي؟

ـ الله علي والدين عندك، أخويي!

ـ سكتي، سكتي، ألحمقة، سكتي، آش ورث عليهم، القرف والكآبة ؟

ـ لو قدرت تعيش كيف عاشوا!

وقال جبيلو بعد أن استرضاني ورضيت بأن أروي له هذه البقية من الحكاية:

ـ أنا الوالد عندي أسهل، أوضح...وحتى الوالدة!

قلت:

ـ الزازة فالراس؟

قال :

ـ الزازة، آش معنى الزازة؟

قلت :

ـ تعبت ، من بعد أحكي لك !

الخنزيرة تهدد

همس لي لما أحس بي أتحرك في الفراش:

ـ فايق؟

نظرت إليه. جالس القرفصاء يدخن وينظر إلى رأس الجبل:

ـ صباح الخير!

لم يحول بصره:

ـ نهار رائع، باقية الأرض مبللة، ولكن نهار عظيم، أخاي، اليوم نفطرو فلبحر، نوض، وبالأمارة تربح ثلاث سوايع من عمرك، ما تدخن حتى تفطرا

أزعجتني رائحة الكيف:

ـ وانت مالك صابح عليه، ياك قتلت غير حليليفة مازالت ترضع، اطفي ولا ما نايضش!

الله على رائحة الأرض بعد ليلة كثيرة المطر:

- تصبح كيف لو كنت فالجنة، أخاي، الحمد لله!

ومشينا صامتين، حزينين، في الحقيقة، كان هناك هم كبير في صدر جبيلو، ولما اقتربنا من الوادي الذي سنقطعه لاختصار الطريق إلى البحر سألني:

- ما شفتيش الحلوفة لكبيرة ماللي دخلت علينا البارح واحنا ناعسين؟ جات تبحث على بنتها اللي كلنا، وكانت غادية تقتلنا لو ما كانتش شمت فينا غير ريحة الثوم، ياك قلت لك كثر من الثوم، أخاي؟ الثوم اللي نقدنا، الحمد لله!

ارتعش جسمي من الخوف حتى توقفت عن المشي ثم سألته:

- ما نعستيش مع رحيمو، فالدار؟

قال لي وهو ينظر إلى الشط:

- امش، أخاي، امش!

تبعته وصرنا في الضفة الأخرى من الوادي فتوقفت من جديد أسأله:

- أين رحيمو؟

قال من غير أن يتوقف:

- رحيمو عند أمها، في الفنيدق، امش!

تركته يقلب أموره في رأسه، و في قلبه، سكت. أفطرنا. أكلنا بيضاً وشربنا شاياً ثم طلب من صديقه صاحب المقهى المتواضع أن يصنع لنا:

- قهوة تكون تقطع!

أشعلت سيجارتي الأولى فتذكرت أنه، وعلى غير عادته، قد بدأ نهاره بالكيف:

- مالك، أجبيلو؟ آش عندك هاذ النهار؟ أو أنا ما صاحبكش؟

انتفض:

- أنا ما عندي أصحاب، أسيدي، ما نعرف حتى واحد، وانت رسلك لي عزيز باش نداويك من هذاك المرض اللي عندك في الصدر، اعلاش باغي تولي صاحبي، أسيدي، اعلاش؟ احمق! ياك أنت هارب من الحبس، وأنا مالي؟ صاحبك!

وذهب بعيداً كأنه يجري في اتجاه تطوان (أو الفنيدق؟) فقال لي صاحب المقهى:

- خليه، غير خليه على حالو، غادي يعيا ويرجع، بنت الجبل طلعت ليه راس الجبل على الصباح، ألطيف!

ونهضت وسرت في الاتجاه المعاكس، ساعة أو يزيد. الشاطيء مقفر، تقريباً. ولكني شاهدت البنت التي رأيت أنا و جبيلو ذلك اليوم، كانت تعوم دائماً، تعوم هذا اليوم أيضاً. إلا أن ملامحها

لم تكن واضحة تماماً كذلك اليوم... كانت أقل ملاحة، جميلة، ولكن قليلة السحر!

قالت لي أمي:

ـ تزوجها، ما تعرف الخير فين!

خرج التلاميذ، في انتظام، وأنا خلفهم ثم تفرقوا يركضون ويتصايحون. سرت محاذياً جدار المدرسة الطويل في اتجاه البيت قبل أن أسمع صوتها خلفي وهي تقول للولد الصغير الذي يسير جنبها:

ـ معلمكم زين، ولكن خواف!

نظرت إليها. طفلة ناضجة، لا تكف عن الابتسام، والجرأة، والثقة في النفس بادية على حركاتها. أطرقت وتابعت طريقي منشغلا بأصوات زيزة والكُوطة الصغيرة ولالولي...

(زيزة: ـ والله بوك، يالزين، يالفن، يالحليب... يحسب لك أنا أمك بالصح؟

الكُوطة الصغيرة: ـ شوف، هي ما أمك وأنا ما أختك، خليني ناخذ حقي من الزين قبل ما ياكلو الذود والتراب!

لالولي: ـ الله، يالشكلاط، الله، أنا وحدي اللي اتكتب علي نكون أختك، نشوفك وما ناكلك، وأنا اللي ما عندي حد!

أمي: ـ ما تقدرش تعرف ديما الخير فين، ولو يبان لك قدّ الجبل، توكل على الله وتزوجها، استر لفضيحة ربي يسترك!)

أنهيت تحضير دروس اليوم التالي وخرجت لأقف بمحطة الحافلات في انتظار عزيز، وطبعاً لأراقب حركات النساء مارات، أو نازلات، أو صاعدات، حتى شاهدت البنت المبتسمة، الجريئة، الواثقة من نفسها، ثقة مراهقة نضجت، شاهدتها مقبلة نحوي، فحاولت أن أتجنبها، لكنها حاصرتني:

ـ اسمح لي نتكلم معاك!

لقد تعودت على نساء ناضجات، لا يحتجن لمثل هذه الأساليب المتواضعة:

ـ آسف، ليس لدينا ما نتكلم فيه!

ازدادت جرأة وابتساماً:

ـ ولد عمي يقرا عندك، يقرا مزيان؟

قلت:

ـ ولد عمك له اسم؟

قالت:

ـ المعتصم جلال، تذكره؟

نحن في بداية السنة، فكيف أعرف أسماء ثمانين تلميذاً كاملة؟

ـ آسف، لم أحفظ بعد كل أسماء تلاميذي!

شرعت تصفه لي بتفصيل:

ـ الطفل الذي كان معك حوالي الثالثة والنصف؟

اتسع صدرها وهي تؤكد:

ـ هو بالذات والصفات!

قلت:

ـ لابأس به، متوسط، قد يحتاج فقط إلى بعض الدعم!

قالت وهي تحاول أن تكون أكثر جداً:

ـ أستطيع أن أساعده إذا شرحت لي كيف، من فضلك!

كانت قد جرتني، من حيث لا أدري، إلى المشي معها حتى اقتربنا من المقاطعة حيث مر رجل تفحصنا قليلا فابتسمت البنت له وانصرف. وفي الوقت الذي صممت فيه على أن أقول لها:

ـ اسمحي لي، صديقي في انتظاري!

أحاطت بنا فرقة من القوات المساعدة:

ـ ماذا تفعلان هنا في الظلام؟

اقتادونا إلى المقاطعة. رموني في زنزانة ورموها في زنزانة أخرى. ساعات، والزنزانتان تمتلئان، وكل من التحق بي يسألني عن أمري وأنا أحكي بؤسي، حتى قال لي أحدهم، وكان ممسكاً بسرواله المخلوع وحزامه في يده:

ـ أضحك، أصاحبي، والله حتى تضحك، أنت مقبوض عليك مع بنت، احنا راه مقبوضين غير على بولة، خرجنا نبولو فالظلمة جمعونا، اضحك، اضحك، وقل حمدتك يا ربي!

وضحكت بالفعل ثم بدأنا نتبادل المعلومات والنصائح حتى قال لي الشاب الذي جعلني أضحك:

ـ اسمع، يا أستاذ، هذي مؤامرة باينة، اللي عملوها عارفينك مليح، عارفين كل شي يخصك، انكر، في جميع الأحوال تنكر، ما عمرك عرفتيها، أولاد النمرود، ما حشموش يحطوا على الأستاذ مسكين!

ونودي علي عند منتصف الليل:

ـ الأستاذ المهدي!

خيل إلي أني أسمع جماعة الزنزانة تصيح بصوت واحد:

ـ انكر!

قال لي رئيس المركز:

ـ عيب، ياأستاذ، عيب عليك هاذ الشي اللي عملت مع هاذ البنت، أنت مربي، يخصك تكون قدوة ومثال، واحنا عاطينكم ابناتنا تربيوهم، الله يلعن...احك، أسيدي، اعترف بدون ما تعبنا وتعب راسك، اعترف، باسم الله!

ولم يسبق لي أن رأيت اسم الله يمرغ في الوحل كما مرغ تلك الليلة، قلت الحقيقة، الحقيقة فقط، ولكن لمن تريد أن تقول الحقيقة؟ لأمها التي تظاهرت بالإغماء؟ لوالدها الذي هددني بالقتل من أجل غسل عاره؟ لابن عمها الذي توعدني بأن يفعل في ما فعلته في ابنة عمه؟ للرجل الذي تفحصنا قبل أن تبتسم له لينصرف وهو يشهد ويحلف بالقرآن الكريم:

- رأيته يرغمها على تقبيله ولما قبلته حاول أن يرغمها على الذهاب معه إلى.بيته؟

لمن تقول الحقيقة، آنذاك، في هذا البلد؟ للمخازنية الذين يسيل لعابهم للسنتيم الواحد؟ لمن؟...ألصقت بي تهمة الاغتصاب، في المقاطعة.

وفي الكوميسارية التي أرسلونا إليها مع الفجر سألني الشاب الذي سيأخذ أقوالي، بعد أن عزلني عن بقية الخلق الآخرين:

- هل تستطيع أن تقول لي الحقيقة لأساعدك؟

قلت له الحقيقة كاملة مرة أخرى، فقال:

- مسكين!

وأخذ أقوال البنت ووالديها والشهود ثم قال للأب:

- تعمل شهادة طبية لبنتك، إذا كانت عزبة فالأستاذ بريء، ماكانش يتزوجها بلا ما يتدفع الملف للمحكمة وتخرجوا ليه على الخدمة!

وبدأت المفاوضات، والمزايدات، والتهديدات، من جديد خارج المقاطعة وخارج الكوميسارية، ثم جاء في الشهادة الطبية:

- البنت نصف عزبة وماشي عزبة!

قالت لي أمي:

- تزوج البنت، الله يرضي عليك، هي باغياك وانت خاصك من يسترك، استرها، أوليدي، وانوي الخير تصيب الخير!

انتفضت زيزة:

- هذا هو النهار اللخر ليها، الشمس أقرب لها منك!

وقالت لالولي:

- اعمل اللي قالت لك أمك، هاذ العالم ما تعرفلوش وما تقدرش عليه، أخويي، اسمع أمك!

وعادت أمي تسألني من جديد:

- انويتي الخير؟

قلت لها:

- باسم الله!

ومر العرس كالجنازة، كالإهانة، لكني مع الأيام بدأت أنسى، ويندمل جرحي، فجاءت البنت الأولى إلى الدنيا، وأسميتها برومانسية (رجاء) ثم جاء الولد فأسميته (السالك) لعل مسلكه في الدنيا يكون أفضل مني، ملأ الولد والبنت علي الدنيا، أحسست بدفء العائلة الذي لم يوفره لي لا والدي ولا أمي... لم أعرف طعمه منذ أن توفيت أختي ثم تبعها أخي وبقيت وحدي تائهاً بين الحكاية والشعر!

غير أن مثل هذه السعادة العابرة، الهشة، لا تدوم لأحد، خاصة لمثلي، فقد لازمتني كآبة اعتبرتها الزوجة دائماً هروباً منها واحتقاراً ثم ظهر من جديد، كاللعنة، حبي الأول:

- زازة التي بمجرد ما تعود إلي تفقدني عقلي، أشعر معها بالجنون بينما أشعر بالذل مع زيزة، وبالتنكر مع الكُوطة!

رجعت مرة أخرى إلى الشرب والتدخين، الذي انقطعت عنه بسبب البنت والولد، وإلى السهر خارج البيت. وفي طاحونة تلك الدوخة، قالت لي زوجتي:

- نرسل البنت إلى خالها في إسبانيا، يربيها ويحصل لها على الجنسية، لم يعد في هذا البلد أمان على العيش!

فقلت:

- حسناً!

وقالت لي بعد أن مرت شهور على ذهاب البنت :

ـ الولد يريده بدوره خاله في إسبانيا، نرسله؟ ضاقت فسحة العيش والأمل هنا، نرسله وننال الجزاء؟ أنظر إلى أولاد الناس، متعلمون، في أحسن صحة، لكنهم تائهون بين ظلال الجدران، نرسله؟

فقلت :

ـ حسناً!

من غير أن أدرك أن أفقها الشخصي هو الذي ضاع معي، أن خيبتها كبيرة في المعلم الفقير، الكئيب، المخدوع، الذي لا يستطيع أن يحلم، بغير الكلام الطيب، في هذا البلد!

ولما تركتني زازة مرة أخرى وحاولت أن أفيق من جديد من الدوخة قالت لي زوجتي:

ـ طلقني، إذا كنت راجل طلقني، أسيدي، وخذ حريتك!

ولأني لم أكن معها قط رجلا، ولأني بالفعل كنت في حاجة إلى استعادة حريتي، بعد أكثر من عشر سنوات مرت في الدوخة، قلت للزوجة :

ـ طلقيني أنت، أنت التي تزوجتيني، طلقيني، قولي: أنت طالق!

فقالتها على الفور:

- أنت طالق!

وجمعت كل سنوات الإهانة والذل لأقول لها:

- وأنت كذلك، طالق!

رحلت إلى إسبانيا. واكتشفت أنه لم يكن لها أي خال أو خالة هناك. كان الولد عند إسباني التحقت به ليتزوجها. وكنت بالتدريج أغرق من جديد في هذه الدوخة حتى أصيب صدري:

- صدري المسكين، كنت، منذ صغري، كلما تعرضت للإهانة، أو الذل، أضرب بعنف على صدري، وها صدري ينتقم مني بدوره!

- ضروري تعرف النسا، وتعرف الدنيا، أخويي، تواسيني لالولي، وهي تودعني عند عزيز قبل أن ترحل إلى دبي!

ثم تضيف:

- هالفلوس عند عزيز، سير عند لبروفيسور يقلبك، وباش ماكان اخبرني!

على الشاطيء، التقيت جبيلو وأنا راجع، كان يبحث عني:

- مقلق، غضبان علي؟

ابتسمت، هو لا يعلم أني راجع من جهنم، مثله تماماً:

- أنا صاحبك!

أشاح بوجهه عني فأحسست به يبكي. انتظرت قليلا ثم قلت:

- ضروري أن تتكلم، أجبيلو، قبل ما تنفجر أو يخونك حتى أنت الصدر، أنا خاني الصدر لما كنت عامل مثلك: ساكت على بركان!

استمر يبكي لكنه قال:

- رحيمو هربت، قالت لي، أخاي، على لفجر: ما عندي ما نبقى نعمل معاك، ما باغي تهاجر كيف الرجال، ماباغي تفك عينيك من الجبال، خليك مقابل راس الجبال حتى يقتلك لخيال... سبتني بالشعر، أخاي، هلكتني!

تذكرت والدي على الفور: كان يقتل أمي، يقتل كل النساء بذلك الشعر ثم يهرب إلى مغارة الجبل ليدفنهن في مسالك المياه الجوفية ومسارب الضوء ومسارات الطيور، فلماذا لا أستطيع دفن نسائي في غير الوحل فيبقين حيات مثل المسخ؟ أيكون ذلك بسبب أني ضيعت بعدي الامتداد عند أمي والعلو عند والدي؟ من يدري!

وبكى طويلا من جديد ثم قال لي ونحن نصعد الجبل:

- قلت لك رحيمو تزوجتها لأنها تشبه لهذاك لخيال؟ شفتها فالعرس، ترقص، كيف كيف، والله الكريم!

ثم سكت طويلاً، ثم توقف فجأة:

- رد بالك من هذيك الحلوفة اللي ذبحنا بنتها، بلا شك حالفة علينا وما تمشي حتى تقتل واحد منا، آه على عينين عندها، تقول خارجة من جهنم!

همست لنفسي:

- هذه الخنزيرة يمكن أن يكون لها اسم: رحيمو أو زيزة، حتى زازة؟

لقد أصبح مشغولاً بها حد الهوس!

المصيدة

كنا قد اشترينا أكلاً قبل أن نبدأ في تسلق الجبل من أجل العودة، لكنه توقف مرة أخرى وقال لي:

- اجلس، ليلة تحمق، كل شي ينتعش في مثل هذا الليلة، شوف القمر، والنجوم، وشم، شم، أخاي، الحياة، شم، الله، شم وخلي صدرك يعمر مليح، خليك تعيش... في نظرك، يقدروا يطلعوني برلماني على هاذ الجبل؟

أجبت مبتسماً:

- إذا كانت الانتخابات نزيهة، يمكن ا

تابع حالماً:

- غادي يجي النهار اللي تولي فيه الانتخابات نزيهة بالصح، قريباً، أخاي، وغادي نطلع للبرلمان ندافع على الجبل،

يخصك تعرف الجبل مليح، الجبل عالم، عامر، وعميق كيف لبحر، غير لبحر عندو من يحميه، والجبل مسكين، باقي العفاريت ما فاقوا ليه، نوض!

ونهضت فقال لي:

- لا، غير بالتي، اجلس مازال شوية، اجلس نكمل لك السؤال: قل لي، أخاي، أنت اللي قاري وكنت مفتش في المالية وكنت معلم... الربعين، ربعين عام، الإنسان يولي فيها نبي، أو ولي، أو حكيم، أو مجنون، كاينة؟...

- كاينة!

- ومالها جاتني أنا بالتلفة، وجاتك انت بالمرض، وعلاش أنت وأنا ماشي بني آدم؟ ما عرفنا، ما شفنا، ما تشوفنا، ما ضحكنا بالصح، ما بكينا بالصح، علاش؟ جاوب، أخاي، يرحم باباك إذا عندك شي جواب، أو غير طرف جواب!

هذا هو السؤال الذي كان يدور في ذهني منذ سنوات، جبيلو يصل إلى صياغته قبلي؟ سيوقظ المواجع، كل المواجع:

- هو... السؤال الأكثر تواضعاً: ماذا ينبغي أن نفعل بأنفسنا الآن، بكل ما تبقى لنا من ذواتنا ومن الآخرين، بكل إرثنا؟

قال:

- مزيان، جاوبني، غير على هذا السؤال اللي طرحت، تقدر تجاوب؟

انتبهت إلى ما في سؤالي من تشويه مهني، كيف التقى فيه المعلم والمفتش، فلم تعجبني صيغته، قلت:

- سؤالك أفضل، في الواقع!

وصدمتني مرة أخرى "في الواقع"، كم نفكر في أنفسنا بالكليشيات، بالجاهز، والمتوارث، فلا نفكر أصلا:

- مليح، جاوب غير على سؤالي، تقدر تساعدني؟

قلت:

- تعطينا ناكلو؟ أنا قتلني الجوع!

تأملني طويلا ثم ابتسم، كأنه يبتسم لنفسه، وقال:

- ذكرتني، يرحم باباك، أنا ناصب واحد لمصيدة وما زال ما عرفت آش جابت، نوض، تقدر تكون قبضت على هاذيك الحلوفة اللي باغية تقتلنا على بنتها، نوض، واقبض حتى أنت، اعمل هاذ لعصا في يديك، الليل هذا وما تعرف آش يخرج لك من الجبل!

فوجئت وخفت:

- مصيدة؟

وربما أحس بخوفي، قال ليشجعني:

ـ مصيدة بالصح، وقوية، وخفيفة، تقبض لرنب، والخنوص، مرة قبضت لي ذويب، ومرة كلب...والله الكريم! وتقبض حتى الطير، لحجل، ولحمام، أنت وحظك اليوم، تحرك، وحل أذنك مليح، فالليل، فالجبل، عاد تعرف قيمة الأنف والأذن، تحرك ورد بالك مليح، يالله غير اتبعني!

وسكت فترة ثم تابع:

ـ أنت مازال ما عندك أعداء هنا، عندك غير عدو واحد: ذيك الخنزيرة اللي شوينا بنتها!

ـ لا، عندي نفسي، نفسي اللوامة!

وصاح:

ـ أرنب، أخاي، أرنب كبير، وافي ولد اللذين!

حمل المصيدة وسار بينما الأرنب يتدلى منها وهي في يده:

ـ اتبعني للبيت عندي!

رأيت هذا البيت من الخارج لما أوصلني عزيز ليضعني تحت رعاية، وبعبارته تحت وصاية، عبد الله جبيلو، فبدا لي مجرد خربة، لكنه من الداخل مطلي بالجير، ويحتوي على غرفتين: الصغيرة مطبخ فيه فرن طيني وأوانٍ مرتبة بعناية، والأكبر فيه أفرشة، وأغطية، بألوان جميلة، وعلى كل واحد من الجدران الأربعة صورة: آدم وحواء، سيدنا علي

يحارب راس الغول، عبد الكريم الخطابي، والدة جبيلو... نصف السقف متحرك، دفعه جبيلو فأضاء القمر كل الغرفة: بيت النوم، والأكل، والراحة، عفريت هذا جبيلو، أو رحيمو؟

- الصور جميلة!

قال:

- هاذيك الصور عمرها ما تخطاني، فين ما مشيت تتبعني، وانت، أخاي، تبعني، تعال عاوني، لرنب تبغيه مشوي أ ولاطايب في الطجين!

- البارح كلنا المشوي، الخنوصة!

- واتعالى عوني، تفضل، أخاي، باسم الله!

هو يعرف أني لا أفهم في الطبخ، أن أشهر أطباقي البيض في الطماطم الذي يتندر به عزيز، فلماذا يصر على إحراجي؟ ولاحظ اضطرابي فقال:

- اسمع، أخاي، لازم تتعلم تطبخ، وتغسل، وتكوي، وتشطب، وتجفف، وتعمل لخروق لأولادك، إذا عندك، وراه كذا من واحد مصيد مع النسا غير لهاذ السبب، الراجل يحب أمو، ويعزها كيف وصانا الله، ولكن ينساها مرة مرة حتى يولي راجل، بالصح؟

لم أشأ أن أسأله:

ـ والأب، أبوك، في كل هذا يا جبيلو؟

فتركته يتابع:

ـ واسمع مليح، تعلم تقشر البصلة، والبطاطا، وتقطع المعدنوس...كل شي ساهل...وتنصب الطجين، على الأقل، تعرف كيف تقدر المقادير، تفضل... أنا رحيمو تبدا تدفع علي كبير لما نخليها تعمل وحدها هذا الشي كلو، اعلاش ما نعملوش لراسي ونرتاح من امرا تغار من خيال؟ تبغيني تبغيني، ما تبغينيش ما تبغينيش، الخنزيرة!

جلسنا نأكل صامتين وفجأة همس:

ـ شوف، شوف في الباب، الحلوفة لكبيرة بنت لحرام، شفت عينيها؟... شوف مليح، شوف بنت الغذارة، شوف، حالفة علينا، والله العظيم، وما تمشي حتى تنتقم، تقتل واحد منا، على الأقل واحد، ها أنت غادي تشوف وتقول قالها جبيلو، أخاي، وواحد فينا لازم يسبق، يا هي يا أنا، شوفي في، دين أمك، ألغذارة، بالتي عليك، غادي نتفرغ ليك ماللي امشات رحيمو!

لم أستطع رؤية الخنزيرة ولا حتى رؤية عينيها وقلت في نفسي:

- جبيلو يشطح!

وأضاف:

- لازمني نعمل باب قوي لهاذ البيت، رحيمو ما تحبش الباب، أنا ضروري نسد بابي، وناخذ لحتياط من الوحش، وحتى من ابنادم الله يستر!

وتركته يعدد وسائل الاحتياط، وسبل الحماية، ولكن ممَّ يريد أن يحتاط، وأن يحمي نفسه، في الحقيقة؟ فكرت في أنه قد يكون من الضروري أن أفعل مثله، ولكن ماذا علي أن أفعل بالضبط؟ تذكرت سؤاله حول الأربعين فعدت أسأل نفسي:

- ما هي الصياغة الدقيقة، أيها المفتش، أيها المعلم، لهذا السؤال؟

وعاد من همه إلى همي:

- تعرف، أخاي؟ تعجبني أسماء نسائك: زيزة، الكُوطة، زازة، ماذا كان اسم زوجتك؟

- لا أذكر، والله!

فتح في عينيه كاملتين:

- تمزح؟ كيف؟ تعاشرها قرابة عشر سنوات ولا تذكر اسمها! تمزح، آه؟

لم أكن أمزح، كنت أناديها دائماً:

ـ لالة!

فنسيت اسمها. ولأنه لم يسمع سوى" لالة" أضاف:

ـ لالة ومولاتي، أسيدي... وزازة، اسمها الحقيقي؟

حاولت أن أجمع بعض ذكرياتي:

ـ لا، طبعاً، زازة من الزاز، كنا نقول رجل زاز أوامرأة زاز. لم يكن للكلمة مؤنث، حسب ما أذكر، وكانت تعني: الجمال والأناقة. المرأة الوحيدة التي استطعت أن أخرق اللغة من أجلها فتسببت هذه اللغة في العديد من ألوان سوء التفاهم معها...

سأحكي لك، سأحكي: كتبت إليها مرة رسالة، في بداية علاقتي بها، بدأت الرسالة هكذا:

ـ حبيبتي زازة...

فردت علي برسالة بدأتها هكذا:

ـ الزازة هي أمك، يالحمار، يالمتخلف!

ضحك جبيلو حتى استلقى على قفاه، وتابعت:

ـ اسمع، خليك من كثرة الضحك، تعرف لماذا انزعجت وثارت بذلك الشكل؟... زازة، أو الزازة كانت تعني أيضاً، إذا لم تخنني الذاكرة، نوعاً من الهوس، أو الفتنة، أي الاضطراب!

ـ وا... حب هذا، بينك وبين زازة، كمل!

- في إحدى المرات، ربما لأقلد والدي، كتبت قصيدة... يعني ما يشبه القصيدة تغزلت بزازة فيها، فردت تسألني:

- من أي كتاب سرقت ذلك الكلام الجميل، أيها اللص، ألا تستحي من سرقة كتب التلاوة؟

ضحك جبيلو من جديد حتى دمعت عيناه، فضحكت بدوري مثله ثم سألني:

- كانت جادة بالفعل؟

تعجبت لسؤاله:

- أنت لا تعرف زازة، زازة لم تكن تتصور أن مثلي يمكنه أن يحصل على الشهادة الابتدائية، أما أن يكتب قصيدة...!

فكر جبيلو ثم قال:

- هاذي، أخاي، مثقفة!

أدركت الإشارة فضحكت فأضاف:

- تكون شقية، مسكينة، رغم المظاهر!

فتابعت:

- وبسبب الشعر ذاته... هي ستتابع دراستها، وستلتحق بالجامعة، أيام الغيلان في الجامعة، ثم تنخرط في النضال آنذاك، ثم سترتبط بمناضل شاعر، غير أن هذا الشاعر، بعد حبسه، سيتخلى عن الشعر السياسي الذي لم يكن يكتب سواه،

وسيجرب شعر الغزل... وفي هذه الفترة سيعينان كأستاذين، وسيصر الشاعر على أن يتزوجا في أقرب وقت، لكنها ستشترط عليه:

- تترك تلك التي تكتب فيها الشعر إذا شئت حقاً أن نتزوج!

وسألني جبيلو مستغرباً:

- كانت في حياته امرأة أخرى؟

قلت بدوري مستغرباً:

- لا، أبدا!

فشرع يتمرغ على الأرض ضحكاً، وتابعت:

- تعرف المهم، أجبيلو؟ قالت له: تختار بين الشعر وبيني؟

توقف جبيلو عن الضحك مترقباً، وأضفت:

- تخلى الرجل عن الشعر وقال لها: طيب، أنت أهم لدي من الشعر! وتزوجا ليكتشف أنها "صفحة"، تعرف معنى صفحة، طبعاً؟

قال بخبث:

- صخرة بركانية، مثل راس الجبل!

تابعت:

- طلبا مساعدة طبيب ليفك جلمود الصخرة، فَفُتِحَتْ الصفحة، لكنها قالت للشاعر قبل الدخلة:

ـ لقد أضعف همتك الشعر، لولا الشعر، وتلك المرأة التي تكتب عنها الشعر، لاستطعت أن تفتح الصخرة بدون مساعدة الطبيب!

فتوقف الشاعر عن تقبيلها وذهب لينام مع قصيدة. في الصباح الباكر أخذها من يدها إلى مكتب القاضي وطلقها!

توقف جبيلو عن الضحك، حتى عن الابتسام، وبدا لي غارقاً في البؤس، لكنني أضفت:

ـ حينئذ عادت زازة تبحث عني. أول ما قالت لي لما التقينا من جديد:

ـ أما زلت تكتب الشعر؟

لم أفهم قصدها وسألتها:

ـ لماذا تسألين؟

قالت:

ـ تكتب عني قصيدة!

قلت شامتاً، أو خائفاً:

ـ طلقت وهم الشعر من زمان بعيد جداً الآن، لما تبين لي أني لا أشبه والدي، وأن الشعر، الغزل أقصد، امرأة، أو جنية، تثير غيرة النساء!

دمعت عيناها وسدت قسمات وجهها كثيراً، ثم قالت:

ـ ما عليهش، بلاش!

ثم فكرت وقالت:

ـ ألا يمكنك أن تحاول من جديد، ولو مرة؟

قلت تعيساً:

ـ لو كنت أستطيع لفعلت ذلك من أجل نفسي أولا، أنا لست شاعراً، كأبي، ولا أستطيع أن أحكي، مثل أمي، قد أكون ورثت أسوأ ما في كل واحد منهما، ألا يقولون: النار تلد الرماد؟

قاطعني جبيلو كمن يتحدث مع شخص آخر:

ـ آه، كم تحب والديك رغم هذا الغضب والخيبة!

قلت:

ـ لم أستطع أن أحظى، ولو بقبلة حقيقية من زازة، وأنا شاعر، أعني مراهق، لكني لما طلقت وهم الشعر، في الوقت الذي احتاجت هي إليه ، استمتعت بكل زازة المدمرة، الخاوية، ولكن المشتعلة...كنت كثير الكآبة، في البيت مع لالة، وكانت لالة، مثل زازة مع شاعرها، تعتقد أن وراء هذه الكآبة امرأة أخرى، بينما لم يكن وراءها سوى مشاعر الذل والخيبة، أخذت لالة مولاتي، تهيء لتهرب بالولد والبنت مني، بعد أن لم تنل مني سوى الكآبة، وجاءت زازة لتفلت صخرة هذي الكآبة

ذاتها، لتجعلني أنتقم من المراهق، ومن لالة...إلى أن قالت لي ذات يوم زازة:

ـ أنا حامل، ينبغي أن نتزوج!

فكرت قليلاً ثم قلت لها:

ـ تعرفين أني لم أعد شاعراً، وتدركين أني حاولت أن أكتب، في الواقع، قصيدة وحيدة لم تستقم لا إيقاعاً ولا صورة، تعرفين عنوان القصيدة: لالة!

قالت لي:

ـ حمار، جاهل، أناني!

علق جبيلو:

ـ لا بأس، الشاعر حتى هو يقدر يكون حمار!

وتابعت:

ـ منذ ذلك اليوم لم أر زازة، ولم أسمع بزازة، وكفت عن هزي كلمة زازة!

كان ينظر إلي حزيناً فاعتقدت أنه يفكر في حزني إلى أن قال:

ـ أنا قلت، أخاي، لرحيمو، غادي نرجع نضرب الغيطة...إيه، في صغري كنت معلم في الغيطة، وقلت لها ونعمل شي موسيقى يرقص عليها هذاك لخيال... كنا ناعسين، عملت

راسها في غرق النوم، وسكتت، وفي الصبح، فاقت، عملت لفطور، وتسناتني حتى فطرت وسولتني:

- تبغي تعمل معايا ولد، أولا تبغي تعمل موسيقى لذاك لخيال، أجبيلو؟ غفلتني، أخاي، والله العظيم. قلت لها على نيتي:

- الزوج، نعملهم معاك ابزوج، الموسيقى، والولد، أولا البنت!

خزرت في وقالت لي لكلام اللي قلت لك، سبتني بالشعر: ذبحتني، بنت اللذين!

تأملت وجهه الكئيب قليلا ثم قلت له:

- ضروري تمشي تجيب رحيمو وترجعها تعيش معاك!

حاول أن يبتسم ساخراً:

- الله يجازيك، أنت معايا أولا معاها هي؟ غادي نوريك، أخاي، وغادي نوريها، حتى هي، آش يسوى عبد الله جبيلو، لما نطلع للبرلمان، ونولي ممثل للجبل عند الحكومة: غادين تشوفو كلكم... قال لك رجع رحيمو، مزيان، نرجع الزازة!

فهمت أن وقت هذا الموضوع لم يكتمل بعد فطويته وحاولت أن أنام:

ـ تصبح على خير!

وبعد يأس وصلني صوته متصالحاً معي:

ـ تصبح على خير، تذكر الدوا، عندك تنسى!

موت الخنزيرة

بحثت عن دوائي قبيل الفجر، لم يكن جبيلو نائماً معي في تلك الغرفة:

ـ أيكون نام في المطبخ؟

غير موجود:

ـ قد يكون ذهب ليرجع رحيمو!

عند منتصف النهار خرجت لأبحث عنه، فكرت في الكوخ الذي أقيم فيه. كان هناك، أمام باب الكوخ، ملقى على الأرض وثيابه ملطخة بالدم، وغير بعيد منه الخنزيرة، ملقاة مثله في الدم، وثلاث خنوصات يتصايحن، كأنهن يبكين، حول جثتيهما. صوتهن هو الذي نبهني الى ما حدث، قلت في البداية:

ـ قد يكون ذهب ليصطاد الأم أو يسرق إحدى بناتها!

كان لا يزال يتنفس، فحاولت أن أجعله يقف على رجليه، لكن بدون جدوى، فحملته على كتفي، أخذت أنزل به الجبل وأصيح:

ـ النجدة، رجل يحتضر، النجدة!

وظل الجبل يردد صوتي لساعات قبل أن يدركني رجل وامرأة، قال الرجل:

ـ ليس هكذا، سينزف كل دمه، أنزله من على كتفك!

وكان المطر قد بدأ ينزل خفيفاً ثم وابلاً. صنعنا له محملاً من خشب ثم سرنا به نحو الشاون. أدخلنا الطبيب معاً إلى نفس الغرفة، قال لي:

ـ لقد تقيأت كل رئتيك، وصاحبك نزف كل دمه!

أعطيت الرجل الذي ساعدني على نقل جبيلو بعض النقود وشكرته كثيراً.

حينئذ فقط أغمي على حتى جاء عزيز الذي كنت سلمت رقم هاتفه إلى ذلك الطبيب، ثم قلت له:

ـ أبلغه، من فضلك، أن جبيلو قد انتقل إلى رحمة الله!

قال عزيز وهو يبتسم كئيباً بعد أن لاحظ أني أبحث في السرير الآخر عن جبيلو وأقول:

- كان هنا، معي في الغرفة، كان لا يزال حياً!

- لا تخف، لن تموت، لا أنت ولا جبيلو، وقد سمح لنا الطبيب بنقلكما إلى الرباط!

قلت له فوراً:

- جيب لي البيصرة، بيصرة مدرحة مزيان، الله يخليك!

تشابك بالأيدي مع الطبيب وهما يضحكان. قلت:

- لماذا تضحكان، هكذا؟

قال:

- جبيلو، أول ما طلب، وهو يفتح عينيه، البيصرة، مثلك!

سألت الطبيب:

- يا دكتور، من فضلك، هل يمكنني أن أقوم على رجلي؟

قال وهو يضحك:

- بكل تأكيد، لماذا؟

قلت:

- لأرى جبيلو، ما زال في غرفة الإنعاش؟

ودخل جبيلو نظيفاً، مورد الوجه كأنه خارج لتوه من الحمام البلدي:

- على السلامة، أخاي المهدي، الحمد لله على سلامتك، وقل لهم، قل، أخاي، ياك قتلتها، صرعتها دين باباها؟

وأضاف حانقاً:

ـ الحلوفة اللي ولدتها!

كان فرحاً مع ذلك، سألته:

ـ وبناتها، الخنوصات الثلاث، حرام عليك يتمتيهم!

أجاب وفي صوته رنة حزن:

ـ غير نصح مليح، نقوم من هاذ الشدة، ونرجع للجبل، أخاي، غادي نربيهم، وأنا نقدر نربيهم أحسن منها، هاذيك الخنزيرة الخانزة، وغادي نعملهم أفضل من بناتي، إن شاء الله!

وضحكنا، أنا وعزيز والدكتور، فقال جبيلو:

ـ لماذا تضحكون، هكذا؟

قلت:

ـ لأنك حي، أجبيلو!

قال:

ـ ظنيتكم تضحكوا علي وأنا فالبرلمان!

وضحكنا، لم نكف عن الضحك، كم ضحكنا خلال اليومين التاليين، نضحك من أي شيء، أي كلام، حتى لما لا نجد شيئا يقول أحدنا:

ـ كفى ضحكا!

فننفجر ضاحكين!

وفي الليلة الأخيرة، بعد أن أطفأ الضوء، قال لي جبيلو:

- ماللي رجعت تضحك كل هاذ الضحك، أخاي، صدرك بخير!

فضحكنا، ضحكت حتى سقطت من فوق السرير، لكني لما هدأت، وأحسست بالنوم يغزوه، سألته:

- جبيلو؟

- آه؟

- لماذا قتلت الخنزيرة؟

وجاءني صوته من عالم آخر:

- هي اللي بدات، هاجمتني، والهاجم يموت بالشرع!

تذكرت والدي من جديد ثم أمي، الطريقة التي كان يقتل بها أمي والطريقة التي كانت هي تقتله بها: الشعر أو الحكاية! ألهذا الأمر نفسه بدأت أحكي؟ الكلام! ولكن كيف نقتل بالكلام، بالكلام وحده؟

فكرت في الصيغة قبل أن أسأل جبيلو:

- كيف هاجمتك؟

- منعتني ندخل لذاك لمكان، وبدات تتكلم معايا بصوت رحيمو، تهددني وتحقر مني!

فتركته ينام. لكنهم، في مستشفى الاختصاصات بالرباط، قالوا له:

ـ حالتك لا تستدعي الإقامة بالمستشفى!

واحتفظوا بي، لما لا حظوا حالة صدري، في غرفة فرغت بعد أن توفي، ذلك الصباح نفسه، محتلاها. قال عزيز وهو يودعني:

ـ غدا نكون معك، اليوم كله!

وهمس جبيلو في أذني:

ـ غادي نوجد، أخاي، شي طريقة باش ننعس معاك حتى تصح، إن شاء الله، غير تهنى، والله ما نخليك وحدك!

وذهبوا فنزلت من عيني دمعتان، دمعتان فقط!

تذكرت أمي وأبي. كان والدي، كلما عاد من " الجبل" بقصيدة جميلة، تقول "نساوه":

ـ رجع بتينة!

وتقول أمي:

ـ قريبا أذهب إلى وادي العريشة!

فأعرف أن وقت الشعر، وزمن الحكاية، سيدوم طويلا!

بداية حلم

فتحت الباب. لا أحد بالباب:

ـ طرق كاذب؟ من الذاكرة؟ من القلب؟ ترقب يتجسد؟

لكني سمعت مثل هذا الطرق أكثر من مرة!

عدت إلى الكرسي الخشبي البارد أتفرج على التلفزيون الصغير الذي جاءني به عزيز من عند صديق له بسلا. لكني قبل ذلك تأكدت من أني أحكمت إغلاق الباب:

ـ أنا خائف ممن، من ماذا؟ لا، أنتظر من في هذا الليل البارد الكثيف؟

مسلسل تافه، كالعادة، على الشاشة الصغيرة حقاً، أنا أنتظر المسلسل التالي، بعض حلقاته تكون مقبولة. طيلة مكوثي في بيت لالولي لم أقرأ كتاباً واحداً ممتعاً، ولا شاهدت فيلماً يستحق

المشاهدة، مجلات النجوم والفضائح، ومسلسلات، رغم أنها لم تكف عن إغداق المحبة... لالولي العميقة في تفاهتها، المليئة في خوائها... جسد زيزة، جسد الكوطة، جسد زازة، جسد لالة: فيم تتشابه كل هذه الأجساد؟ ولِمَ تبدو الآن جسداً واحداً فقط، جسداً يسمم، يقتل النفس؟

ـ لقد راكمنا ما يكفي من التفاهة، أصبح يردد منير الحكيم، ليهجرنا!

أراكم التفاهة، كما يحدث لي دائماً إلى أن يصبح أبسط فعل مؤلماً، يصبح الأكل بلا طعم، والتدخين بلا لذة، والجنس بلا متعة، تستقر في الدم هذه المرارة، هذه الكآبة، وتسمم الجسم كله.

تقول لي لالولي:

ـ لم تعد تعرف كيف تفرح نفسك، وإذا ما حدث هذا لا قدر الله تعاقبها على القليل من الفرح بدل أن تحاول إطالته، ماذا تريد لنفسك؟ هل تعرف ما تريد على وجه الدقة؟ تقتلها؟ اقتلها وخلصها؟ تريد أن تتخلى عن التفتيش في المالية وتصبح معلماً؟ افعل، لكن رفقاً بنفسك! ها لبنات قدامك، غير الزين، وبلا فلوس!... الكآبة؟ كل الوجوه كئيبة، اعمل الصباغة حتى انت،

وافرح، ولو بالكذوب، افرح، غير من الخارج!... افرح بنا إلا ما باغيش تفرح براسك، فرحنا شوية، ما نستحقوش؟

- إني لم أرث الشعر عن والدي، يالالولي، والحكاية عن أمي، بالرغم من أنني قد أكون ورثت هذه الحاجة، الحاجة إلى شيئ يعلي، يسمو بالتفاهة، أو على الأقل بالكآبة، فماذا أفعل؟

- تضحك شوية وتفوج على راسك، اضحك كيفي أنا على راسك!

الطرق من جديد على الباب:

- من يطرق بابي في مثل هذا الوقت وهذا الطقس؟ مريض وحيد؟ صاحب، صاحبة؟ لالولي في دبي!

لا أحد في الباب مرة أخرى! وأين أسمع هذا الطرق على الباب؟ المسلسل الثاني قد بدأ: امرأة تواجه رجلا في ظلام شفاف:

- افتح الباب واتركني أنصرف!

يسد الرجل الباب بجسمه:

- أحبك، مازلت أحبك!

تصرخ المرأة كأنها تستغيث:

- وأنا أحب الجمال، أعشق الحق، أموت في السحري والخيالي، فأين أجد كل هذا؟ فيك أنت؟ أنت قبيح، ظالم،

اعتيادي جداً، و روتيني، تموت في المال والوجاهة! اتركني أخرج، أو أخرج أنت ولا تعاود طرق بابي من جديد!

- غريب، أقول لنفسي، كانا يعيشان كل هذه السنوات معاً!

في مثل هذا الوقت الذي يتشاجران فيه كانت زيزة تتسلل إلى فراشي:

- يلعن بوك، يحسب لك أنا أمك بالصح، وسع، وشد البزولة، ها زيزة!

وفي التلفزيون يظهر الرجل ماداً رأسه من الطابق العشرين:

- سأنتحر!

- انتحر وخلصنا، تقول المرأة متوسلة!

وتقول لالولي:

- لا، حرام عليك، وخييتك، تخليني وحدي؟

ويعود الرجل إلى استعطافها فتقول:

- لم أعد أستطيع أن أحلم في حضرتك، ولا في غيابك، هذا كل ما في الأمر، فلنفترق، قلت لك!

وقالت لي الكُوطة:

- زيزة تحلم بالزلايجي الآن في الثدي، وأنا أحلم بك في السرة، هي ليست أمي وأنا لست أختك... تكلم، افتح فمك!

والرجل البئيس يصرخ في التلفزيون:

- ولكن، حبيبتي، أنا أحاول أن أوفر لك كل شيء، ألم أشتر لك سيارة جديدة أمس فقط؟ ألم أحطك بكل اللطف؟

- إلا الحلم، قلت لك، فاتركني أذهب!

وكانت زيزة، عندما يضيق بها الحلم، أو يتعثر، تقصد فتحة المرحاض لتحوله إلى كابوس، تحاول أن تذهب إلى جهنم!

كذلك تفعل زازة: تقاوم الشعر!

وتقول المرأة للرجل:

- لطفك، وهداياك، وعواطفك صارت تسد مسام جسدي، تغلقه وتدميني!

ولما أرادت الكُوطة أن تعود إلى فراشها من فراشي سألتني:

- شفت الصغر والطراوة، ألفقيه؟ ابق تحلم وحدك!

وهاهي المرأة التي في التلفزيون تجلس على سرير في عيادة طبية وتقول لها الطبيبة:

- مستحيل ألا تحلمي، كلنا نحلم، وفرق بين ألا تحلمي وبين ألا تتذكري أحلامك!

وقالت لي زازة:

- أكرهك، كما كرهت الشاعر، لأنكما تظلان تحلمان، بدون فائدة... جهلة، وظلمة، بدون همة!

وتفكر المرأة في التلفزيون:

ـ لم أعد أستطيع أن أتذكر أحلامي، أي أن أجهر بها!

وضحكت لالة وهي ترد على سؤالي:

ـ أنا لا أحلم بأي شيء في هذا البلد، هذا البلد سد خياله، أكلته الكآبة!

ودخلت زيزة:

ـ وسع، مالك خايف، من آش خايف، أوليدي، غير قل لي؟ دين بوك، الكلب، يحسب لك أنا أمك بالصح!

كنت مبللا بالعرق وهي تدفع بجسدها جسمي، وسألت لالولي مرة:

ـ هل تعرفين معنى أن يحلم الإنسان بالبلل، طول الليل؟

ردت، وهي في أقصى درجات الجد:

ـ الماء الوفير مال كثير، إن شاء الله، مال يحفظ ويحمي، ينظف وينقي، يعلي من الشأن ويزين، قل: ياربي!

المرأة في التلفزيون تدخل إلى حلقة نساء، قالت إحداهن:

ـ الشيخوخة هي أن ترضى بالنوم ولا يرضى بك، يصبح النوم مثل المعشوق المدلل، أو الذي لا يبادلك العشق، الذي يتعبك أكثر مما يفرحك!

وبدت امرأة أخرى، في الحلقة، تفكر قبل أن تقول:

- الشيخوخة هي حين تصبح رغبات الجسد أقوى من قوة الجسد، ينتهي الجسد إلى الزهد فيها، أي في نفسه، أو يستنجد بالمرض، أو يموت فوراً بحادثة أوسكتة قلبية، يسمونها مفاجئة!

وقالت المرأة الأكثر سناً:

- الشيخوخة في ألا يأتي أي شيء في وقته، ولو كان المرء في العشرين من عمره!

وقالت لالولي:

- "الشرف"، اللي يتسمى الشيخوخة، فيه وفيه، أخويي، عندك الشرف الصغير والشرف لكبير، الشرف الصغير نهار يموت لك "الحوت"، والشرف لكبير نهار حتى واحد ما يبقى يشوف فيك، وكل شي اللي يجي في الوقت أمير، خير، غير ما يتعطل، ما يسبق!

وأخيراً تنطق المرأة التي غادرت زوجها، أو عشيقها، في التلفزيون:

- الشرف، نهار يجيك الشرف بالصح، تبدأ تحلم بلا ما تعقل، ومن ذيك الساعة وأنت تمرض حتى تموت أو تحمق!

وانتبهت إلى أنها تتكلم تقريبا كما تتكلم زازة، فسمعت زيزة تقول:

ـ البارح حلمت وشخرت، الحمد لله، تقول، أسيدي، بايت فالجنة... شوف، آه، عندك تتعطل مع أصحابك هاذ الليلة، أنا اليوم شهوتي فالحوث، الله يرضي عليك، أوليدي، ويكون منك الخير ولخمير، الله يعاونك!

وتظهر المرأة التي لا تذكر أحلامها في آخر لقطة من المسلسل: في غرفة ضيقة، ليس فيها غير سرير وكرسي، تسمع طرقاً على الباب، تخرج لتفتح، لكنها لا تجد أحداً، تبحث في الممرات الطويلة المتعامدة، التي تشبه المتاهات:

ـ لا أحد!

هي التي قالتها أو أنا؟

يتكرر الطرق، يتكرر فتح الباب وإغلاقه:

ـ دائماً لا أحد!

وأخيراً تبدو حائرة، تفكر، ثم تقول:

ـ الحمد لله، بدأت أتذكر أحلامي، هذا الطرق حلم، تذكرته!

وتنتهي آخر حلقات هذا المسلسل، فأقول لنفسي:

ـ هذا أهم شيء، هذه الليلة، غدا يأتي عزيز وجبيلو، لا ينبغي أن أتأخر عنهما في النوم!

وقمت لأطفيء التلفزيون الصغير فاكتشفت أني لم أكن قد أشعلته!

نمت نوماً هادئاً حتى الصباح، كأني على يقين من أني سأشفى من داء الصدر، لأن هناك من سيطرق بابي. لكن، قبل عزيز وجبيلو، جاءني والدي بثعبان صغير زاهي الألوان وقال لي:

ـ تعلم، تعلم تلعب به قبل ما تعجز!

وفي غفلة مني، وأنا أحاول ملاطفته، تسلل الثعبان، من فمي، إلى رأسي، وأخذ يعبث فيه فجاءت أمي وقالت لي:

ـ خذ هذه التينة، جئتك بها من رأس الجبل!

روايات أخرى للمؤلف

- *الضلع والجزيرة* : روايتان، دار الحدائق، بيروت، 1980.
- *الأبله والمنسية وياسمين*: رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.
- *عين الفرس*: رواية، دار الأمان، الرباط، 1988 و2005.
- *مسالك الزيتون*: رواية، منشورات السفير، مكناس، 1990.
- *شجر الخلاطة* : رواية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995، ودار الأمان، الرباط، 2001.
- *خميل المضاجع*: رواية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995.
- *نساء آل الرندي*: مطبعة دار المناهل، الرباط، 2000.
- *الأناقة* : دار الثقافة، الدار البيضاء، 2001.
- **أريانة**: رواية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2003.
- **الأعمال الروائية الكاملة**: وزارة الثقافة، الرباط، 2005.
- **المرأة والصبي**: رواية، دار الأمان، الرباط، 2006.
- **فارة المسك**: رواية، الريشة السحرية، مكناس، 2008.

من إصداراتنا

- في غيابها . نبيل سليمان
- هزائم مبكرة . نبيل سليمان
- ضيف شرف نادين غورديمر
- شريعة حمورابي . جنكيز أبدولايف
- الجَبَانة . شاركدي إمرة
- بيوض القدر . ميخائيل بولغاكوف
- القصيدة الأخيرة . رابندرانات طاغور
- المداسة . محمد الأصفر
- تقودني نجمة . محمد الأصفر
- عاهرة الجمهورية . كريستين جوفييه
- بنات الصحراء . ويريس دايريه
- فجر الصحراء . ويريس دايريه
- زهرة الصحراء . ويريس دايريه
- طوف الإلاف . الميلودي شغموم

تصميم الغلاف : نا
لوحة الغلاف : بشير بشير
دار الحوار